

العدل أساس الملك

(العدل ميزان الله الذي وضعه للخلاق ونصبه للحق)

الميزان العادل بين الحق والباطل يقول :



أنا الميزان لا أخطئ وغير الحق لا أعطي
لقول الخالق الباري : (أقيموا الوزن بالقسط)

العدل^(١)

أوصى الله سبحانه وتعالى بإقامة العدل ، وزينه للإنسان ، وصوّره له بصورة ملجأ ، قوى الدعائم ، ما استغاث به ملهوف إلا وأغاثه ، وما استجار به مظلوم إلا وأجاره ، وجعله (جل شأنه) أساس الملك ، وروح العمران ، وأساس المدنية والحضارة .

العدل هو إيصال الحق إلى مستحقه ، وهو وضع الشيء في محله ، وهو ميزان الله تعالى في الأرض ، يأخذ به الضيف حقه من القوى ، والحق من المبطل ، وبه قوام الدنيا والدين ، وسبب صلاح الخلق ، وهدايتهم إلى طريق الحق .

وبه تتألف القلوب ، وتلتئم الشعوب ، وتزول الخطوب والكروب ، ويشمل الناس التناصف ، ويضمهم التواصل والتعارف ، وبه تعمر البلاد ، وتسعد العباد ، وتؤمن السبل ، وتتمو التجارات ، وتدر الأرزاق والخيرات ، ويعم الصلاح الخاصة والعامة .

العدل ما قامت به أمة من الأمم ، وجعلته أصل موارد أفعالها ومصادرهما إلا وكانت في مقدمة الأمم عمراناً ، وأكثرها حضارة ومدنية ، وماحادات عنه أمة إلا وكان الخراب رائدها ، والضمف قائدها .

بذلك قضى العقل ، وحكم الله بالحق ، وجرى العمل في الأمم من أول نشأتها للآن ، مهما تغيرت الأحوال والزمان .

وقد حث الله على العدل ، وبالغ في التمسك والأخذ به في جميع الأحوال ، وسائر الأعمال . فقل جل شأنه :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

وسياتى ذكر الآيات الواردة في القرآن الكريم في العدل :

(١) قال وزير العدل في خطبة له : العدالة هي في السماء نور من أنوار الله ، وهي على الأرض ميزان منصوب لإحطاق الحق ؛ فالقضاء إنما يمشون إلى الحق مسترشدين بنوره وبوحي ضمائرهم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أَعْظَمُ قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى الْمَلِكُ الْعَادِلُ » .

وسياتى ذكر الأحاديث الواردة في هذا الباب .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لبعض عماله : عليكم بالعدل ، وتباعدوا عن

الجور ، ولا تغدروا إن عاهدتم ، ولا تنقضوا إن صالحتم .

وسياتى ذكر ما قيل من أقوال الخلفاء والعلماء والحكام والأدباء .

والعدل الذى يجب على كل إنسان التمسك به ، يكون بإعطاء كل ذى حق حقه ،

لا أكثر ولا أقل .

فالبايع الذى يكيل المشتري بقدر ما اتفقا عليه فهو عادل ، ويجوز رضا زبائنه ، ويربح

حلالاً ، وتتسع تجارته .

والمشتري الذى يدفع ما عليه للتاجر فهو عادل ، ويميل كل التجار لمعاملته ومساعدته ،

وإعطائه ما يطالب منهم .

والموظف الذى يقوم بأداء واجبه حق القيام فهو عادل ، ويفوز برضا رئيسه ، ومحبة

إخوانه ، ويستحق التقدم والترقى .

والرئيس الذى يسوى بين مرءوسيه فيما يعهد إليهم من عمل ، ويوزع بينهم بشاشته

وعطفه ، ويمطى كل واحد ما يستحق من مكافأة وترقية ، ولا يرقى صنيعه له ، ولا يفض

عن معائب ذوى الخطوة عنده ، ثم يحصى على غيرهم أنفاسهم وهفواتهم ، بل يكون الكل

لديه سواء ، فيما هو من مقتضيات الوظيفة . ومستلزمات الأعمال فهو عادل يكتسب حبهم

واحتزازهم وإخلاصهم ، فضلاً عن أن ذلك يبعث فيهم روح النشاط والذاب والجد ،

والخوف من التقصير والتماود ، فيكثر إنتاجهم ، وينظم سير الأعمال ، ويتوافر الكل على

ما يرقى شأن البلاد ، ويسير بها فى مدارج الكمال .

والقاضى الذى ينصف المظلوم من الظلمة ، ويرد الحقوق إلى ذبيها ، فلا يبرى آثماً ،

ولا يدين بريئاً ، ولا يقرب خصماً على خصم ، فهو عادل ، يكتسب رضا الخلق والخالق ،

وتحسن سمعته ، وتبقى ذكراه .

وسياتى الكلام على صفات الإمام العادل ، والقاضى العادل .

فمن استمسك بجبل حب العدل ، ومال إليه ، سهل الله سبحانه وتعالى سلوكه سنه عليه ، وأوضح بدليل التوفيق والهداية مناهجه لديه ، وجعل من عدله يوم القيامة نوراً يسرى بين يديه ، وكان عند الله من الأئزبن المقرببن له يوم الحساب ، يوم يقوم الناس لرب العالمبن ، يوم يحكم بينهم بالعدل أحكم الحاكمبن .

كلمة

حضرة صاحب المعالى الأستاذ عبد الحميد عبد الحق ، وزير الشؤون سابقاً (ووزير التموين حالياً) فى العدل : كانت الحكمة المسيطرة على وأنا وزيرهى :
العدل أساس الملك ، ولا كتمان أننى كنت أشعر براحة كبرى لسيطرة هذه الحكمة ، وأن كان العدل شديداً فى مظهره فى كثير من الأحيان ، فإنه ينطوى فى كل الأحيان على خير كثير لا يفتن إليه أحد غير العادل نفسه .
وفى سبيل تمسكى بهذه الحكمة كنت لأعياً بمنشورات ولوائح لها قداسة فى نظر الموظفين ، كما كنت لأعياً باعتبارات حزبية ، يعتبر عدم اعتبارها فى نظر البعض جريمة لا تغتفر .

وقد سبلى ذلك الكثير من المتاعب فعلاً ، غير أننى كنت أرتاح أخيراً عند ما أرى أن التصرف العادل يمحو آية الحزبية عند المؤمنبن بها .

عن مجلة الاثنبن العدد ٧٠٧

المادرة فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٤٧

الآيات القرآنية

اواردة فيها كلمة « العدل » وتفسير معانيها

سورة البقرة

١ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعْلِلَ هُوَ فليُؤْمَلْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ) ٢٨٢

يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى موعد عينتموه فاكتبوه ، فذلك أوفق وأدفع للتشريع .

وايكتب لكم كاتب عادل لا يجوز على أحد الطرفين ، ولا يمتنع أحد الكتاب أن يكتب لينفع الناس كما نفعه الله بتعاليمه الكتابة .

وايكن المولى هو الذى عليه الحق ، وليتق الله ، ولا ينقص من الحق شيئاً ، فإن كان الذى عليه الحق لا يستطيع أن يمل لقله عقله ، أضعفه من صغر أو كبر أو جهل ، فليمل قيمه أو وكيله ، وليشهد على ذلك رجلان أو رجل وامرأتان .

سورة النساء

٢ - (فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَمْلُوكَةٌ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ لَا تَعْرُؤُوا) ٣

بعد أن ذكر الله اليتامى وأوصى بهم خيراً قال : وإن كنتم تخافون أن لا تعدلوا فى يتامى النساء ، إن تزوجتم بهن تخرجاً من تبعه ظلمهن ، فتزوجوا من غيرهن مثنى وثلاث ورابع . وخافوا أيضاً أن لا تعدلوا بينهن ، كما تخافون ذلك فى اليتامى ، فإن رأبتم أن العدل بينهن غير متيسر فيكفيكم واحدة ، أو ماملكت أيمانكم من الإماء ، ذلك أقرب أن لا تميلوا عن الحق .

٣ - (وَإِذَا حَكَتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) ٥٨

هذا أمر من الله بالحكم بين الناس بالعدل (انظر سبب نزول هذه الآية في المصحف المفسر)

٤ - (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ) ١٢٩

ولن تستطيعوا أن تكونوا على العدل الكامل بين النساء ولو أفرطتم في تحري المثل كما كنفوا بأن لا تميلوا كل الميل بترك المستطاع .

٥ - (فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا ، وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا وَإِن لَّكَانَ بَيْنَ يَدَيْكُمْ

تَعْمَلُونَ خَيْرًا) ١٣٥

بآياتها الذين آمنوا كونوا مواظبين على العدل ، مجتهدين في إقامته ، تؤدون شهادتكم لوجه الله ، ولو على أنفسكم أو والديكم أو أقاربكم ، وإن يكن المشهود عايه غنياً أو فقيراً ، فلا تمتنعوا عن أداء الشهادة ميلاً إليه اغناء ، ولا رحمةً به لفقره ؛ فالله أولى بالنظر إلى حال الغنى والفقير منكم .

فلا تتبعوا أهواءكم كراهة أن تعدلوا ، وإن تلوا ألسنتكم لإخفاء معالم الحق ، أو تمتنعوا عن أداء الشهادة ، فإن الله خير بما تعملونه ، مجازيكم عليه بما أنتم أهله .

سورة المائدة

٦ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) ٨

يا أيها الذين آمنوا اجتهدوا في القيام بعهود الله ، شاهدين بالقسط ، أي بالعدل ، ولا تحملنكم كراهتكم لقوم على أن لا تعدلوا ، بل اعدلوا فإن ذلك أقرب للتقوى والخوف من الله ، واحذروا الله إن الله خير بما تعملون .

٧ - (وَإِن حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) ٤٢

بعد أن بين الله أن اليهود سماعون للكذب أ كالون للحرام قال :

يا محمد إن تحاكموا إليكم في شيء فانت خير بين أن تحكم بينهم ، وبين أن تعرض عنهم .
وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاعدل بينهم إن الله يحب العادلين .

٨ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِحَكْمِ رَبِّهِ ذُو الْعَدْلِ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكِفَايَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ) ٩٥

أوجب الله على من يقتل صيداً وهو محرم أن يقدم للبيت من النعم عدد ما قتل من الصيد ، ويحكم بذلك ذوا عدل منكم ، أو إطعام مساكين ، أو ما يساويه من الصيام ليدوق عاقبة عدوانه .

٩ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ إِنَّكُنَّ ذُوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ) ١٠٦

يأبىها المؤمنون إن فيما أمرتكم به الإشهاد في الوصية ، فانتخبوا لذلك شاهدين من أقرار بكم ذوى عدل ، أو آخرين من غير أقرار بكم إن كنتم على سفر وأصابكم مصيبة الموت .
وإن ارتبتم في شهادتهما فاحجزوهما بعد الصلاة فيقسمان لكم قائلين : لا نستبدل بالقسم عرضاً من الدنيا ، ولا نكتم شهادة الله ، فإن فعلنا نكن إذن من المذنبين .

سورة الأنعام

١٠ - (وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلُّ عَدْلٍ لَأَيُّوْخِذُ مِنْهَا أَوْلِيكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ) ٧٠

أى وإن تعد كل فداء (العدل: الفدية ، لأنها تعادل الفدى) لا يؤخذ منها ، أو أهلك الذين أسلموا إلى الهلاك بما كسبوا من الذنوب ، شرابهم من ماء مغلى ، ولهم عذاب أليم بسبب كفرهم .

١١ - (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ

العليم) ١١٥

أى وتمت كلمة ربك صدقاً فى الأخبار والمواعيد ، وعدلاً فى الأفضية والأحكام ،
لامبدل لكلماته وهو السميع العليم .

١٣ - (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ) ١٥٢

بعد أن قال الله تعالى فى الآية المذكورة قبل هذه مامعناه : ولا تقربوا مال اليتيم حتى
يبلغ الرشد ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط أى بالعدل ، قال :
وإذا قلتُم فاعدلو ، أى وإذا حكتم فاعدلو ولو كان الخصم قريباً لكم .

سورة الأعراف

١٣ - (وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) ١٥٩

أى من اليهود أمة يهدون الناس بالحق ، ويعدلون فى الحكم بالحق أيضاً .

١٤ - (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ) ١٨١

أى ومن خلقنا أمة يهدون الناس بالحق ، وبالحق يعدلون فى الحكم .

سورة النحل

١٥ - (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلِمٌ

عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ

صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ٧٦

وضرب الله مثلاً رجلين : أحدهما أخرس لا يقدر على شىء من الأعمال لنقص فى قواه
العقلية ، وهو عالة على ولى أمره ، إلى أى جهة يرسله لا ينجح ، فهل يستوى هذا الرجل
ورجل تامّ العقل ، ذوفهم وكفاية ، يأمر بالعدل والإحسان ، وهو على صراط مستقيم .

١٦ - (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ ، وَيَنْهَىٰ عَنِ

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) ٩٠

إن الله يأمر بإقامة العدل والإحسان ، وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه ، وينهى

عن الفحشاء (الزنا) والمنكر والمعاصي والظلم ، يعظكم انعلمم تتذكرون .
في هذه الآية أمر بنحوال كريمة عليها نظام العمران والسعادة ، ونهى عن خصال
تخالف ذلك .

سورة الإسراء

١٧ - (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) ٣٥
وأتموا الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم (أى بالميزان العادل) ذلك خير لكم ،
وأحسن عاقبة .

سورة الشعراء

١٨ - (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) ١٨١ - ١٨٣
أوفوا الكيل ولا تنقصوا الميزان ، وزنوا بالميزان العادل ، ولا تهضموا حقوق الناس ،
ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، أى ولا تنقصوهم حقوقهم ، ولا تفسدوا فى الأرض .

سورة الشورى

١٩ - (وَأَمْرٌ تُلْأَعْدِلُ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ
لأحجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير) ١٥
أمرنى ربى أن أعدل بينكم ، فلا أحابى طائفة ولا جنساً ، الله ربنا وربكم ، لنا جزاء
أعمالنا ، ولكم جزاء أعمالكم ، لا محل للخصومة بيننا بعد ظهور الحق ، سوى مايزينه العناد
والشقاق ، والله يجمع بيننا وإليه المآب .

سورة الحجرات

٢٠ - (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَقَتْ إِحْدَاهُمَا)

عَلَى الْأُخْرَى فَنَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَنَى ، إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) ٩

وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فأصلحا بينهما ، فإن تعدت إحداهما على الأخرى فقاتلوهما حتى ترجع لأمر الله ، فإن رجعت إحدى الطائفتين فأصلحا بينهما بالعدل ، وأنصفوا إن الله يحب المنصفين .

سورة الطلاق

٢١ - (فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْفَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ) ٢

فإذا بلغ المطلقات آخر عدتهن فراجعوهن إن شئتم ، وأحسنوا معاشرتهن أوفارقوهن مع توفية جميع حقوقهن ، وأشهدوا في حال مراجعة المرأة أوفراتها (شاهدين عدلين) وعلى ذينك الشاهدين أن يقيموا شهادتهما لله ولا يكتبها ، ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر .

بعض أحاديث في العدل والقضاء بالعدل

١ - عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ طَلَبَ قِضَاءَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يَبْأَلَهُ ، ثُمَّ غَلَبَ عَدْلُهُ جَوْزَهُ فَلَهُ الْجَنَّةُ ، وَإِنْ غَلَبَ جَوْزُهُ عَدْلُهُ فَلَهُ النَّارُ » رواه أبو داود .

٢ - وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَدْنَاهُمْ مِنِّي مَجْلِسًا : إِمَامٌ عَادِلٌ ؛ وَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَبْعَدُهُمْ مِنِّي مَجْلِسًا إِمَامٌ جَائِرٌ » رواه الترمذى والطبرانى .

٣ - وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أَفْضَلُ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ : إِمَامٌ عَادِلٌ رَفِيقٌ ؛ وَشَرُّ عِبَادِ اللَّهِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ جَائِرٌ خَرَقٌ وَأَحَقُّ » رواه الطبرانى .

٤ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ: الَّذِينَ يَعْدُلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُثِّقُوا ». رواه مسلم والنسائي

٥ - وعن عياض بن حمار رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلَاثٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ (عادل) مُوَفَّقٌ ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقٌ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٌ ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ ». رواه مسلم

٦ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً ؛ وَحَدٌّ يُقَامُ فِي الْأَرْضِ بِحَقِّهِ أَوْ كَى فِيهَا مِنْ مَطَرٍ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا ». رواه الطبراني

٧ - وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يَا أَبَا هُرَيْرَةَ عَدْلُ سَاعَةٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً ، قِيَامٌ لَيْلًا ، وَصِيَامٌ نَهَارًا ؛ وَيَا أَبَا هُرَيْرَةَ جَوْرُ سَاعَةٍ فِي حُكْمٍ ، أَشَدُّ وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ عَزًّا وَجَلًّا مِنْ مَعَاصِي سِتِّينَ سَنَةً ».

وفي رواية: « عَدْلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً ». رواه الأصبهاني

٨ - وعن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « لَيَأْتِيَنَّ عَلَى الْقَاضِي الْعَدْلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَاعَةٌ يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي تَمْرَةٍ قَطُّ » رواه أحمد ، وابن حبان في صحيحه ، ولفظه قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « يُدْعَى الْقَاضِي الْعَادِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَلْقَى مِنْ شِدَّةِ الْحِسَابِ مَا يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي عُمُرِهِ قَطُّ ».

الموضوعات

١ - ذكر ما قيل في العدل

أقوال الخلفاء ، والعلماء ، والحكام ، والأدباء .

قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لبعض عماله : عليكم بالعدل ، وتباعدوا عن الجور (الظلم) ولا تغدروا إن عاهدتم ، ولا تنقضوا إن صالحتم .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لعمر بن العاص : يا عمرو متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

وقال في إحدى خطبه : أيها الناس من رأى منكم فى إعوجاجاً فليقوّمه ؟ فقام رجل وسط الجماعة ، وقال : والله لو رأينا فيك إعوجاجاً لقومناه بحمد السيف . فقال : أحمد الله الذى جعل فى هذه الأمة العربية من يقوّم إعوجاج عمر بسيفه . فهل بعد هذا دليل على شدة تمسكه بالحق والعدل ؟

وقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه : العدل صورة واحدة ، والظلم صور كثيرة ، ولهذا سهل ارتكاب الجرائم ، وصعب تحمى العدل .

وسأل الإسكندر أحد حكماء أهل بابل « أرسطاطاليس » : أيما أبلغ عندكم : الشجاعة أم العدل ؟ ! فأجاب : إذا استعملنا العدل استغنيانا عن الشجاعة .

وقال بعض الحكماء : بالعدل والإنصاف ، يكون الاتحاد والائتلاف ، ويزول النزاع والاختلاف .

وقال بعض الأدباء : إن العدل ميزان الله الذى وضعه للخلق ، ونصبه للحق ؛ فلا تخالفه فى ميزانه ، ولا تعارضه فى سلطانه ، واستعن على العدل بخلتين : قلة الطمع وكثرة الورع .

وقال عمرو بن العاص : لا سلطان إلا برجال ، ولا رجال إلا بمال ، ولا مال إلا بعارة ، ولا عارة إلا بعدل .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله حينما استأذنه في تحصين مدينته : حسنها بالعدل ، ونقّ طرقها من الظلم .

وقال عبد الله بن طاهر يوماً لأبيه : كم تبقى هذه الدولة فينا وتدوم في بيتنا ؟ فأجابته : مادام بساط العدل والإنصاف مبسوطاً في هذا الديوان .
وقال أحد الشعراء :

العدل في جسم الولاة جواهر لومات جسم فالجواهر باقيه
وقال آخر :

العدل روح به تحيا البلاد كما دمارها أبدأ بالجور يتحتم
وقال آخر :

راعوا العدالة يا قضاة بحكمكم فالعدل أشرف خطة الإنسان
إن تحكموا بالعدل تلقوا راحة وعلى الأسرة ترقدوا بأمان

وقال بعضهم : عدل السلطان يقوم مقام خصب الزمان .

وجاء في الأمثال : « في بيته يؤتى الحكم » أي يحضر الشاهد العدل .

« أعدل من ميزان » : (يضرب للرجل الذي يحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم)

وقيل : إن الملك يدوم مع العدل وإن كان صاحبه كافراً ، ولا يدوم مع الظلم وإن كان صاحبه مؤمناً .

وكان كسرى أنوشروان يسمي : بالمالك العادل ، ويكفيه في الشرف والفخر وعلو

الذكر والقدرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه بذلك حيث قال : « وُلِدْتُ فِي زَمَنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ » .

ولما قيل لكسرى : بماذا استحق الملك هذه الصفة ؟ قال : لأنني جعلت العدل

أكبر همي ، وحملني عليه قول الحكيم الفاضل :

لا ملك إلا بالجند ، ولا جند إلا بالمال ، ولا مال إلا بالبلاد ، ولا بلاد إلا بالرعايا ،

ولا رعايا إلا بالعدل ، فلزمت العدل واعتمدت عليه فأمنت الرعايا وعمرت البلاد .

وقد نقل عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قوله : العالم حديقة سياجها الشريعة ، والشريعة سلطان يجب لها الطاعة ، والطاعة سياسة يقوم بها الملك ، والملك راع يعضده الجيش ، والجيش أعوان يكفلهم المال ، والمال رزق تجمععه الرعية ، والرعية سواء يستعبدهم العدل ، والعدل أساس قوام العالم .

وقال الحسن البصرى : أخذ الله على الحكام أن لا يتبعوا الهوى ^(١) ، ولا يخشوا الناس ^(٢) ولا يشترؤا بآياتي ثمنا قليلا ، ثم قرأ : (يَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ^(٣) فَأَخِمْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ^(٤) لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ^(٥) .
وقرأ (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى ^(٦) وَنُورٌ ^(٧) يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ^(٨) لِلَّذِينَ هَادُوا ^(٩) وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ ^(١٠) بِمَا اسْتُحْفِظُوا ^(١١) مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ^(١٢) فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ ^(١٣) وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ^(١٤) ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ^(١٥) فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ^(١٦)) .
وقال بعضهم : لو أنصف الناس لاستراح القاضي ، وصار كل عن أخيه راضياً .

٢ - أقسام العدل

ينقسم العدل إلى قسمين : عدل المرء مع نفسه ، وعدله مع غيره ، وذلك الغير إما أن يكون فرداً أو جماعة .

- (١) هوى النفس في قضائهم .
- (٢) كخشية سلطان ظالم أو خيفة أذية أحد .
- (٣) عن الدلائل الدالة على توحيد الله .
- (٤) عن الإيمان بالله تعالى .
- (٥) لو أيقنوا يوم الحساب لآمنوا في الدنيا وحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى .
- (٦) يهتدى إلى الحق .
- (٧) يكشف ما استجبهم من الأحكام .
- (٨) اتقادوا لحكم الله .
- (٩) تابوا من الكفر .
- (١٠) الزهاد والعلماء .
- (١١) استودعوا .
- (١٢) رقباء .
- (١٣) هذا نهى للحكام أن يخشوا غير الله في حكوماتهم ويداهنوا فيها خشية ظالم أو كبير .
- (١٤) ولاتستبدلوا بأحكامي التي أنزلتها .
- (١٥) مستهيناً به .
- (١٦) قال ابن عباس : من لم يحكم به جاحداً فهو كافر ، وإن لم يكن جاحداً فهو فاسق ظالم .

فأما عدله مع نفسه ، فهو سلوك سبيل الاعتدال في العقيدة والعمل ، فلا يتمرد على الله تعالى ورسوله ، ولا يخرج عن البراهين الصحيحة ، ولا يلقي بنفسه في تيار الشهوات القاتلة ، ولا يطبع غيّه وهواه ، وبذلك ينجو من شقاء الدنيا ، ويسلم من أمراض للشهوات البدنية والعقلية ، ويبقى نفسه ناراً وقودها الناس والحجارة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

ومن لم يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، وعرضها للهلاك والخسران في الدنيا والآخرة . أما عدله مع غيره ؛ فإنه يترتب عليه السلامة في الدنيا من شرور الناس وحقدهم عليه والأمن على نفسه وأهله وما أنعم الله عليه من نعم في دار الدنيا ، والنجاة من هول يوم القيامة ، والسعادة الخالدة في دار النعيم . وله أمثلة كثيرة نكتفي بذكر المهم منها ها هنا :

١ - المثال الأول

عدل ولاة الأمور مع رعيّتهم

وهو أهم أنواع العدل وأعلىها قيمةً وقدرًا ، لأنه يترتب عليه سعادة المجتمع وصلاح أفرادهِ ؛ فإن الحاكم العادل لا يقصر في شيء من واجبه مع رعيّته ، ولا يهمل شيئاً يرقى أبدانهم وعقولهم وأخلاقهم ، ويحفظ عليهم أموالهم ودماءهم وأعراضهم ويكون لهم مثلاً أعلى في معاملة بعضهم بعضاً بالعدل والإنصاف .

فالحاكم كالقلب من الجسد إذا صلح صلح ، وإذا فسد فسد كما ورد في الصحيح فلماذا كانت مسئولية ولاة الأمور عظيمة في نظر الشريعة الإسلامية ؛ وقد حذر منها النبي عليه أفضل الصلاة والسلام تحذيراً شديداً .

روى عن أبي ذرّ رضی الله عنه قال : « قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي ؟ قَالَ : فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكَبِي ثُمَّ قَالَ : يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ ، إِلَّا مَنْ أَخَذَ بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا » رواه مسلم .
وحقها في نظر الدين : أن يقوم بكل شيء فيه مصلحة المحكومين .

قال سيدنا عمر : والله لو عثرت بغلة في العراق لوجدتني مستولاً عنها ، فقيل : لماذا يأمر المؤمنين ؟ فقال : لأنني مكلف بإصلاح الطرق .

هذا مثال الحاكم العادل ، ولهذا جعل الله له فضلاً عظيماً ، وميزةً كبرى ؛ فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ : إِمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ ، فَقَالَ : إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَاهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ . »

وقد اشتمل هذا الحديث الشريف على جميع الكمالات الإنسانية .

فالإمام العادل هو الذي تنصلح به رعيته ، ويستقيم به أمر دينها ودنياها ، وهو أعظم السبعة قدراً ، وأجلهم منزلة ، ومن أجل هذا بدأ به عليه الصلاة والسلام .

وأما الشاب الذي نشأ في طاعة الله ، فهو خير لنفسه واغيره ، لأن من يتعود العمل الصالح لا تطغى عليه شهوته ، فلا يقع منه شر لنفسه ولا لغيره .

وأما الذي قلبه معلق بالمساجد ليؤدي فيها الصلاة التي فرضها الله عليه في أوقاتها ، ويحرص على عمارتها ، فإن صلاته تنهاه عن الفحشاء والمنكر ، لأن من يتعلق بالمساجد لا بد أن يكون ذلك ناشئاً من خشية الله تعالى ، ومن شعر قلبه بخشية ربه ، وصلّى له خاشعاً خاضعاً ، فإنه لا محالة ينتهي عن الفحشاء والمنكر ، فلا يقع منه شر لنفسه ولا لغيره .

وأما المحبة لله تعالى فمعناها التعاون على البرِّ والتقوى ؛ فمن أحب غيره لهذا الغرض ، فقد خدم نفسه ، وخدم الناس أجل خدمة .

وأما الذي دعت امرأته ذات حسب وجمال لنفسها فامتنع خوفاً من الله ، فذلك هو الرجل الذي ملك شهوته ، وجعل لعقله عليها سلطاناً عظيماً ، فهو أمين على عرضه ، وعلى أعراض الناس ، وجدير أن تكون له تلك المنزلة .

وأما الذي يتصدق بصدقات خفية ، فذلك الرجل الذي هو خير وبركة على عباده ،

فإنه يغيث المكروب ، ويطعم البائس والمضطر ، ولا يجب أن يمن على الفقير فيؤذيه بمنه ، ولا يجب أن يعمل رياء الناس ، فإن مدحوه فعل ، وإن لم مدحوه ترك .
ومثل هذا جدير برضاء الله تعالى وحسن جزائه .

وأما الذي تفيض عيناه عند ذكر ربه فهو المؤمن حقاً الذي قال الله فيه :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

فهؤلاء السبعة جديرون برحمة ربهم وإحسانه ، وأهل لأن يقيهم الله تعالى هول يوم القيامة .

(يَوْمَ تَذْهَبُ) فيه (كلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) .

ويتبع عدل الولاة والسلاطين عدل القضاة والشهود ، وهو أهم ركن تقوم عليه سعادة المجتمع ، وينبني عليه أمن الناس على دمايتهم وأعراضهم وأنفسهم .

فإذا جار القاضي (أى ظلم) ولم يقسط الشهود ، فإن النظام يختل ، وتسود الفوضى . ولهذا كانت مسؤولية القاضي شديدة في نظر الإسلام ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ : وَاحِدٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَاثْنَانِ فِي النَّارِ ؛ فَأَمَّا الَّذِي فِي الْجَنَّةِ فَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَقَضَى بِهِ ، وَرَجُلٌ عَرَفَ الْحَقَّ فَبَجَّارٌ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النَّارِ ، وَرَجُلٌ قَضَى لِلنَّاسِ عَلَى جَهْلِ فَهُوَ فِي النَّارِ » . (رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه)

فالقاضي المدوح في نظر الدين هو الذي يعرف الحق ويقضى به .

فأما معرفة الحق فإنها تحتاج إلى مجهود عظيم ، وبحث في كل الظروف والأحوال المحيطة بالخصوم .

وأما الحكم بالحق فإنه يحتاج إلى مجاهدة عظيمة حتى يتنزه القاضي عن التحيز والميل مع أقربائه أو أصدقائه ، أو من تربطه معهم رابطة ، أو تجمعهم معهم جامعة ، أو يكون له في الميل غرض يناله من مال ، أو منصب أو شهرة .

فالقاضي لا ينبغي إلا إذا كان بالنسبة إلى الخصوم كالميزان المنضبط ؛ فلا يميل

مثقال ذرة إلى واحد منهم إلا بالحق ، ومن لم يفعل ذلك فإنه يتحقق فيه قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ وُلِّيَ الْقَضَاءَ ، أَوْ جُعِلَ قَاضِيًا بَيْنَ النَّاسِ ، فَقَدْ ذُبِحَ بِغَيْرِ سِكِّينٍ » .

(رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ورواه غيره)

ومعنى الحديث: أنه عرض نفسه للهلاك والعذاب الأليم ، وهذا إن لم يقض بالحق كما

تقدم في الحديث الأول .

وبديهى أن الركن الأعظم الذى يعرف القاضى به الحق هم الشهود ، فإذا تحيزوا

وشهدوا زوراً ، وضلوا القاضى ، فقد احتملوا كل هذه المسئولية ، وكانوا من أشقى الخلق ،

وأتعسهم عند الله وعباده .

من أجل ذلك قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ

(العدل) شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا

فَاللَّهُ أَوْلىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) .

قوامين : مواظبين على العدل فى جميع الشئون والأحوال ، فلا يحل لكم أن تتخلفوا

عنه فى أى حال .

شهداء لله : تشهدون بالحق ابتغاء مرضاة الله تعالى ، فلا تحملنكم الأغراض الدنيوية

على التحيز وشهادة الزور .

ولو على أنفسكم : مبالغة فى الحث على أداء الشهادة على وجهها ، لأن الشهادة لاتقع

من الإنسان على نفسه ، وإنما الذى يقع منه يسمى إقراراً ، إلا إذا أريد بالشهادة بيان

الحق مطلقاً فتشمل الإقرار .

أوالوالدين والأقربين : رأى بعض أئمة المسلمين أن شهادة الولد لوالديه ، وبالعكس

جائزة أخذاً من هذه الآية .

ولقد روى بعضهم : أن سلف المسلمين كانوا على ذلك حتى تغيرت أخلاق الناس ،

فدخلوا عن ذلك .

وقد علمت أن الغرض إنما هو المبالغة في الحث على قول الحق ، فلا يلزم منه ما ذكر .
وقوله : إن يكن غنياً أو فقيراً ، معناه : أن الشاهد ينبغي أن لا يلتفت لأى سبب من
الأسباب الموجبة للتجيز ، سواء كانت صلة قرابة ، أو كانت عاطفة شفقة أو رحمة ، كما إذا
خشى أن يشهد على فقير فيضره في ماله أو هيئته ، وخوفاً من غنى ، وغير ذلك .

بل يجب على الشاهد أن لا يعرف في هذا المقام سوى الله تعالى الذى يأمره بأن لا ينشئ
عن قول الحق قيد شعرة .

فلا تحملنكم أهواؤكم وأغراضكم على أن لاتعدلوا في حقوق الناس ، وإن تلوا
السننكم فلا تاتوا بالشهادة على وجهها ، أو تعرضوا عن أداء الشهادة رأساً فإن الله كان
بما تعملون خبيراً . فيجزىكم على ما عصيتموه .

وقال تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ
قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ) .

لا يجرمنكم ، أى لا يحملنكم شَنَاَن قوم (شدة بغضكم لهم) على أن لاتعدلوا في حقوقهم ،
أعدلوا بأبيها المؤمنون في أعدائكم وأوليائكم فإن العدل هو أقرب للتقوى ؛ أى أدخل
في مناسبتها ، وأشد الأمور شبيهاً بها ؛ لأن التقوى نهاية الطاعة ، والعدل أساس الفضائل .

فهذا قول الله وقول رسول الله في الحث على عدل ولاة الأمور والقضاة والشهود
فعلى المسلمين أن يعملوا به ، وأن يتبعوه في كل أمورهم ليظفروا بالسعادة في الدنيا والآخرة
ويكونوا من الفائزين .

٢ - المثال الثاني

عدل رؤساء الأسر والقبائل

فاذا وفق رئيس أسرة أو زعيم قوم إلى إقامة العدل بينهم فإنه يحيا معهم حياة طيبة مباركة ، ويعيش هو وهم في عيشة راضية مرضية .

فإن عدل الرئيس يوجب استمرار روابط المودة والوثام بينه وبينهم من جهة وبينهم وبين بعضهم من الجهة الأخرى ، فضلاً عما يترتب على ذلك من اقتدائهم به قدوة حسنة فإنه يكون مثلاً صالحاً للصغير والكبير ، فيشب الصغير على حب العدل مع نفسه ومع غيره ، ويعامل الكبير الناس بالعدل ، وبذلك يكفون شر المظالم الداخلية والخارجية .

أما إذا كان الرئيس ظالماً فإنه يكون شراً ووبالاً على نفسه وعلى مرءوسيه ، فإن المظلوم منهم يحقد عليه وعلى من ظلمه لأجله فتقطع بينهم روابط القرى وعلاقات المودة ويمعن كل واحد في الإضرار بالآخر .

فضلاً عما يسرى لهم من خلق الظلم فيتسلطون على خلق الله فيظلمونهم وبذلك يكونون من أشقى خلق الله .

ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل من نيط به عمل مستولاً عن العدل في ذلك العمل .

وليس العدل قاصراً على السلاطين وولاة الأمور والقضاة والحكام ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« كُلكم راعٍ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : الإمامُ راعٍ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ راعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ راعِيَةٌ فِي بَيْتِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالْخَادِمُ راعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَكُلكم راعٍ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ . »

(رواه البخارى ومسلم)

وهذا الحديث صريح في أن كل فرد من الأفراد مطالب بتحقيق العدل بنسبة ما يكاف به من الأعمال .

فرييس الأسرة والقبيلة يجب عليه أن يعمل على تحقيق العدل بينهم فلا يظلمهم في مطعم ، أو مشرب ، أو مسكن ، ولا يذني هذا ، ويقصى ذاك بدون سبب يستدعى ذلك من عقوبة على ذنب ومكافأة على خير .

ولا يهمل أمر تربيته وتعليمهم ما لهم وما عليهم من الواجبات ، ولا يقصر مع واحد منهم في تعليمه ما ينفعه في دينه ودنياه ، ولا يذرهم يعتدون على أموال الناس أو أعراضهم ، ويتعهد تهذيب نفوسهم وإصلاح أخلاقهم .

فإذا ترك الرئيس شيئاً من ذلك ؛ فإنه يكون ظالماً مسئولاً عن تقصيره هذا وعن كل ما يترتب عليه من المآثم بين يدي أحكم الحاكمين الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة وسيجزى الناس على أعمالهم يوم يبعثون .

وأما المرأة فإنها مسئولة عن تدير منزلها بما يوافق حال زوجها ، فلا ترهقه في الإنفاق ، ولا تظلمه بطلب ما لا يقدر عليه ، ولا تخونه في عرضه وماله ، ولا تفعل ما يؤذيه .

وكذلك يجب عليها أن تعدل بين أبنائها فيما بين يديها من طعام وشراب ، فلا تفضل واحداً على أخيه من غير حق بل تعطى كل واحد ما يناسبه ، فلا تحرم من تبغض وتجزل للعطاء لمن تحب ؛ فإن خانت زوجها في عرضه أو ماله أو آذته بعصيانها أو فضلت بعض أولادها على بعض كانت ظالمة تستحق عند الله سوء العقاب .

وأما الخادم أو العامل فهو مسئول عن العمل الذي يسند إليه ، والمال الذي يؤتمن عليه ، فإذا أهمل العامل عملاً أو أداه ناقصاً فقد ظلم سيده واستحق عقاب الله تعالى .

وكذلك الخادم إذا خان سيده في مال ، كأن كلفه بشراء شيء فزاد في ثمنه وأخذه لنفسه ، أو أهمل مساومة التاجر فغبته في السلعة ، أو رأى أحداً يعتدى على مال سيده فلم يردده ، أو كلفه بالإنفاق على عمله فأسرف فيه بدون حق أو غير ذلك فإنه يكون آثماً ظالماً يستحق العقوبة التي أعدها الله للظالمين في الدنيا والآخرة .

ومن هؤلاء الصنّاع الذين يتعاقدون على عمل شيء لا يُجيدون صنعه ويفشون الناس فإن لهم عقاب الظالمين ، وعليهم إثم العاشين ، كالبنائين والنجارين والحدادين ونحوهم .

فإن هؤلاء جميعاً مكافون بالعدل في صنائعهم بأن يجيدوها ولا يتركوا باباً من أبواب الخلل إلا أصلحوه .

متى فعلوا ذلك لوجه الله تعالى وابتغاء ما عنده فإن الله يبارك لهم في الدنيا ، ويشيهم على ذلك في الآخرة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ حَفِظَ أَمْ ضَيَّعَ » .

(رواه ابن حبان في صحيحه)

فهؤلاء مسئولون جميعاً عن العدل فمن حفظ ما وكل إليه من الأعمال فله جزاء الحسنی ، ومن ضيعه فله سوء العذاب .

عبد الرحمن الجزيري

عن مجلة نشر الفضائل . السنة السابعة - العدد - ٣٦

٣ - العدل الشامل وضروره

عنى الإسلام بإقامة العدل عناية عظيمة ؛ لأنه أسُّ الملك وقوامه وعدته ونظامه فقال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) . وقال تعالى : (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ)
بعض (قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ
وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ - أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ) .

وسرّ ذلك أن العدل الشامل يدعو إلى الطاعة ويبعث على الألفة ويستوجب المودة وتعمّر به البلاد وتتمى به الأموال ، وليس شيء أسرع في خراب الأرض ولا أفسد لضمائر

الخلق من الجور ؛ لأنه لا يقف عند حده ولا ينتهي إلى غاية ، وشكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستمكن . ذمّل قوله صلى الله عليه وسلم .

« ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ ؛ فَأَمَّا الْمُنْجِيَاتُ : فَأَلْعَدْلُ فِي الْعَصَبِ وَالرِّضَا ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالْقَصْدُ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ ؛ وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ : فَشُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَمَعٌ ، وَإِحْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ . »

وانظر قول الإسكندر الحكيم الهندي — وقد رأى قلة الشرائع بها — : لم يصارت سفن بلادكم قليلة ؟ قالوا : لإعطائنا الحق من أنفسنا ، ولعدل ملوكنا فينا ، فقال لهم : « أيما أفضل : العدل أم الشجاعة ؟ »

قالوا : إذا استعمل العدل أغنى عن الشجاعة . وتدبر قول بعض البلغاء : إن العدل ميزان الله الذي وضعه للخلق ، ونصبه للحق ، فلا تخالقه في ميزانه ، ولا تعارضه في سلطانه ، واستعن على العدل بخصتين : قلة الطمع ، وكثرة الورع .

ضروب العدل

للعدل ضروب شتى :

ومنها : عدل الإنسان في نفسه ، وذلك بحملها على المصالح ، وكفها عن الفضائح ، ثم بالوقوف في أحوالها على عدل الأمرين : من تجاوز أو تقصير ، فإن التجاوز فيها جور ، والتقصير فيها ظلم ، ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ، ومن جار عليها فهو على غيره أبلع جوراً . انظر إلى قول بعض الحكماء : من تواني في نفسه ضاع .

ومنها : عدل الإنسان فيمن دونه ، كالحاكم في رعيته ، والرئيس مع مرؤسيه ، وعدله فيهم يتحقق بأمر أربعة : اتباع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك التسلب بالقوة ، وابتغاء الحق في السيرة ؛ لأن اتباع الميسور أدوم ، وحذف المعسور أسلم ، وترك التسلب أوجب المحبة ، وابتغاء الحق أبعث على النصره ؛ ومن لم تجتمع له هذه الأمور من الحكام أو الرؤساء كان الفساد بنظره أكثر ، والاختلاف بتدبيره أظهر .

ذمّل قوله صلى الله عليه وسلم : أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ أَشْرَكَهُ اللَّهُ فِي سُلْطَانِهِ فَجَارَ فِي حُكْمِهِ .

وتأمل قول بعض الحكماء : أقرب الأشياء صرعة الظلوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم .
وقول (أزدشير بن بابك) : إذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طاعته .
وقول (أنوشروان) لما عوتب على ترك عقاب المذنبين : هم المرضى ونحن الأطباء ، فإذا
لم نداوهم بالعفو عنهم فمن لهم ؟ .

ومنها : عدل الإنسان مع من فوقه : كعدل الحكوميين مع الحكام ، والمرء وسين مع
الرؤساء ، وقوام ذلك إخلاص الطاعة ، وبذل النصرة ، وصدق الولاء ، فإن إخلاص
الطاعة أجمع للشمل ، وبذل النصرة أدفع للوهن ، وصدق الولاء أنتق لسوء الظن ؛ ومن لم
تم له هذه الأمور من المرء وسين سلط عليه من كان يدافع عنه ، واضطر إلى اتقاء من كان
بقيه ، وفي هذا يقول الباحثرى :

متى أخرجت ذا كرم تخطى إليك ببعض أخلاق اللثام
وما أبدع قول بعض الحكماء : إن الله لا يرضى عن خلقه إلا بتأدية حقه ، وحقه شكر
النعمة ، ونصح الأمة ، وحسن الصنعة ، ولزوم الشريعة .

ومنها : عدل الإنسان مع إخوانه ونظرائه ، وآية ذلك ترك الاستطالة (التطول
والامتنان) واجتناب الإدلال (مجاورة الحد في التجنى) ، وكف الأذى ، فترك الاستطالة
أدعى إلى الألفة ، ومجانبة الإدلال أبقى للمعطف والرحمة ، وكف الأذى مروءة ونصفة .

تأمل بديع قوله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أَنْبَأُكُمْ بِشِرَارِ النَّاسِ ؟ قَالُوا : بَلَى
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : مَنْ نَزَلَ وَحْدَهُ ، وَمَنْعَ رِفْدَهُ (معونته) وَجَلَدَ عَبْدَهُ : ثُمَّ قَالَ :
أَفَلَا أَنْبَأُكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكَ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ ،
وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ ، ثُمَّ قَالَ : أَفَلَا أَنْبَأُكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكَ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
قَالَ : مَنْ يُبْفِضُ النَّاسَ وَيُبْغِضُونَهُ » .

وانظر إلى قول بعض الحكماء في أن قبح الظلم في صورته المختلفة ومعانيه المتغايرة:
الحاكم السوء ، يخيف البرىء ، ويضع الدنىء ؛ والبلد السوء يجمع السفل ، ويورث
العلل ، والولد السوء يشين السلف ، ويهدم الشرف ؛ والجار السوء يفشى السر ، ويهتك
الستر ، ؛ فما أنفع العدل ، وما أضر الجور !
المرحوم محمد جاد المولى بك

٤ - العدل وأثره في حياة الأمم

ترى الرئيس العادل فتعرف فيه صولة الحق ، وصدق الرجولة ، وسمو الضمير ، ويقظة الروح الأبية الطامحة إلى كل شريف من العمل ، وصادق من القول ، وتبحث عن حياته الخاصة وثمراتها ، فتري سمادته نتيجة حسن العمل ، وهناءه قريناً برضا النفس ، والرقى ناشئاً عن النظام وأداء الواجب .

وتسأل عن تاريخه في سياسة رعيته ، فتعرف كيف سجل في ديوان كفاحه قصة البطولة في ميدان الجهاد ، والظهور على عوامل الفساد ؟ وتعلم كيف يصارع بالعدل الظلم فيصرعه ، وكيف يناهض بالحق الباطل فيدفعه ؟ وكيف يهنا الناس به ويسعدون ؟ لأنه أصلح بينهم ، ووفاهم حقوقهم ، لأهم لا يظلمون ولا يظلمون ، ولا يميلون عن الشرف ، ولا يتورطون في إجرام ذلك .

هو الإمام العادل في رعيته ، أو الحاكم بالحق في قضيته ، أو الرجل الحازم في أسرته ، هي الحياة : لا يمكن أن يستقيم مائتاهم ، ولا يطرد تديبرها ، ويحسن أمرها الحاكم أو محكوم ، ويملك زمامها إلا بالعدل .

والإنسان الذي نما وتفرع من جذع الشجرة الآدمية ، ليملاً فراغ العالم بالخير ، ويسد رحبة الكون بعارة الأرض ، لا يكون جديراً باسم الإنسان حتى يسوس بالعدل نفسه وماله ، وأسرته ، ووطنه ، والإنسانية كلها .

فالرجل يعدل في نفسه إذا جعلها بالحكمة ، وطمانها بالواجب ، وزنها بالإخلاص ، وأنعشها وسرها ببرىء اللهو وحسن المتاع ، وجنبها سبيل الميل إلى الهوى ، والزيف عن الهدى ، فلا هو بالمهمل الكسول ، ولا بالفرط التعتت ، وإنما هو إنسان يعمل ويستريح ، ويبذل ويكف ، ويجاهد وينتظر ، ويسعى ويؤمل ، ويوافق في مبدئه روح الإسلام ، في قول الرسول عليه الصلاة والسلام ما معناه :

« أَنَا إِنْسَانٌ أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأَقُومُ وَأَنَامُ ، وَهَذِهِ سُنَّتِي ، فَمن رَغِبَ عَن سُنَّتِي

فَلَيْسَ مِنِّي » .

ولعل الناظر في قوانين الإسلام ، وأحكامه في العبادات والمعاملات وغيرها ، يرى أنه بنى على أساس العدل وفكرته ، حتى يؤكد بيقين أن العدل هو الإسلام ، والإسلام هو العدل ، وأن الله يبعث بتمام الإسلام السامية ، روح العدل العالية في نفوس المؤمنين العاملين .
(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

فالعدل لأهميته في حياة البشرية أنزلت الشرائع السماوية نبهته ونشره ، ورسّل الله هم الذين أرسلوا ليقوموا بحراسته ، وتوزيعه بين الناس ، حتى تهنا الإنسانية ، وتكمل لها عوامل النمو ، وتدفع عنها عاديّات الظلم من الشقاء والفناء ، ماجعات القوة التنفيذية والزواج والحدود إلّا لحراسته ، وفي هذا يقول الله تعالى :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (بالعدل) ، وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ) .

والناظر في التشريع الإسلامي ، يرى هذه الناحية فيه بشكل أتم ، فلقد جمع بين مطالب الروح والجسد ، فأباح التناول من طيبات الرزق ، ليقوى الإنسان على أداء واجبه ، وفي غير إسراف حتى لا يكون شهوانياً ، وحرص على العلم النافع ، ومكارم الأخلاق لتحميا الروح ، ويؤدى الإنسان واجبه في عمارة الكون ، وإسعاد مجتمعه ، ونهى عن المغالاة في العمل ، وحمل ما لا يستطيع .

وفي الحديث : « إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرَفْقٍ ، فَإِنَّهُ لَنْ يَشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ » .

ورفع الفوارق بين الطبقات في المعاملة ، وجعل الإنسان رهين عمله ، وطلب العدل حتى مع الحيوان ، فأسقط عدالة من يضرب دابته بغير سبب .

والعدل يأتي في شئون الحياة ومرافقها ، فيكون في المال بأن ينفق صاحبه ما يحتاج إليه ، ويلاحظ فيه واجبه نحو أخيه الإنسان ، فيسمع جوع الفقير ، ويكسى جسد العارى ، ويزيل ألم الأرملة واليتيم والمسكين ، ويبذل للناس جزءاً من ذلك العرض الزائل ، ليبذلوا له ودّاً باقياً ، وحبّاً دائماً ، وبذلك لا يكون من البخلاء المقلّين .

ثم يدخر لنفسه وأهله ما ينفعه في النازلات ، ويعينه في النائبات ، حتى لا يكون من السرفين المبذرين . قال الله تعالى :

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) .

ويكون في الحكم بأن يكون في حكمه قوى الإرادة ، شجاعاً في الحق ، يقول قوله مراعيًا فيها ضميره وخاتمه ، لا يخشى فيها أحداً ، ولا يجأى عظيمًا ، ولا يعين ظالمًا ، ولا يسمع شهادة مزورة ، وذلك لعمرى هو الرجل ، وأقد قيل قديمًا :

« لو أنصف الناس أنفسهم لاستراح القاضي » .

ونعود إلى بيان عدل الحاكم ، وأثره لأهميته ، وارتباط سعادة المحكومين به فنقول :

الملك العادل في رعيته هو أول بانٍ في صرح نهضة البلاد ، وخير عامل سمو مكانة الأمة بما يضره للشعب من مثل النزاعة والشرف ، وما يقدمه للناس من نظم الخير والإصلاح ، وما يقوم به من إرجاع الحق لصاحبه ، ومعاملة الكل بالمساواة ، والضرب على يد الظالم المستبد ، أن تعبت بحلال النظام ، ونعمة الأمن ، فتزعج الهادئين ، وتخيف الوادعين .

بذلك يتبين أن العدل طريق كمال الرجل ، وسبيل هناءة الأسرة ، وهو من الأغنياء تخفيف لألم اليأس والفاقة ، ومرارة الفقر والحُرمان .

ومن الحكام : نصر الضعفاء والمهضومين ، وقمع للظلمة والجبارين .

ومن الملك : سمو بالشعب إلى العلا ، وسير بين نحو الكمال .

وما كان لأمة أن تنهض بدون العدل ، لأنها لا تستطيع أن تحيا على نقص رجالها ، وقلق أسرها ، ولا أن تعيش على فساد نظامها ، وسوء سياستها ، ولا يمكن أن تسعد ، وفيها من عوامل الشقاء ، جوع في البطون ، ونقص في الضمائر ، وجور في الحكم ، وضعف في القيادة .

وما أحسب مشا كل الإنسانية اليوم ناشئةً إلا عن جور بعض الدول في تقدير المجد ، وإسرافها في النفوذ والسلطان ، وبنائها نهضتها على شقاء الآخرين .

فلا وربك لا يرتاح الناس حتى يعقلوا ، ولا يعقلون حتى يتطهروا ، ولا يتطهرون حتى

يخلصوا ، ولا يخلصون حتى يعدلوا ، وهامو ميزان العالم في يد الزمن ، وفي كفتيه
سعادة وشقاء .

وبمقياس العدل والجور تتجاذب الكفتان ، والخلق هم الضحايا البائسون إذا جاروا ،
أو الإنسانية الهائثة إذا عدلوا واستقاموا .

محمد حسن أبو الخير

مجلة نصر الفضائل العدد ٧ السنة الثامنة

أقوال في مدح العدل

قال أنوشروان : العدل سور لا يفرقه ماء ، ولا يحرقه نار ، ولا يهدمه منجنيق .
وقيل : عدل قائم خير من عطاء دائم .

وقال قدامة : حسبكم دلالة على فضل العدل أن الجور (الظلم) الذي هو جذوة لا يقوم
إلا به ، وذلك لأن اللصوص إذا أخذوا الأموال واقتسموها بينهم ، احتاجوا إلى استعمال
العدل في اقتسامهم ، وإلا أضرت ذلك بهم .

وقيل : لا يكون العمران حيث لا يعدل السلطان .

وقيل لحكيم : ما قيمة العدل ؟ قال : مُلك الأبد . ف قيل : ما قيمة الجور ؟ قال :
ذل الحياة .

وقيل : العدل يسع الخلق ، والجور يقصر عن واحد .

٥ - العدالة في الإسلام

خلاصة مقالات (لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد علي منصور)

منشورة في مجلة الإسلام بالأعداد ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ من السنة الرابعة عشرة

لكي يزداد الناس يقيناً من إن الدين الإسلامي هو بحق دين العدالة والإنصاف ، يحسن
بنا أن نضع تحت أنظارهم صورة مصغرة عن حالة الأمم - ولا سيما الأمة العربية قبيل
الإسلام - حتى يتبين لهم الفارق الكبير بين حالتهم في هذه الفترة التي سبقت هذا الدين

الخنيف — ولم تقم فيها للعدالة قأمة — وبين حالتهم بعد أن أظلمهم هذا الدين العظيم ،
وقرر العدل بين أهله ، ودعا إليه في غير اين ولا هوادة ، وجعله أساساً هاماً يجب السير عليه ،
والتمسك بأهدابه ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ولو تتبعنا أحوال الناس — وبخاصة العرب قبل الإسلام — لوقفنا على حقائق محضة
تذوب لأجلها القلوب ، وتشمئز منها النفوس ، لأن حالتهم في هذه الآونة إن دلت على شيء
فإنما تدل صراحة على هدم صرح الفضائل التي لاغنى عنها للأفراد والجماعات المتطلعة إلى
الكمال ، الراغبة في التقدم والرقى، الساعية إلى تخليد ذكراها على تسمية هذا العصر (بمعنى
الجاهلية) لأن الناس فيه كانوا منغمسين في جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ؛ وكانوا لا يعرفون
للعدالة اسماً ، بل شاع بينهم الجور والظلم ، فكان قويهم يعتدى على ضعيفهم ، ولا دين
يمنعه ، ولا قانون يردعه ؛ وإذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا
عليه الحد ، وكانوا لا يعطون شيئاً من الميراث للنساء ولا للصغار من أبناء الميت ، وإنما
يعطونه لمن كان قوياً قادراً على حمل السلاح ، وملاقاة العدو ، والقتال في الحروب .

وقد اتخذوا الإغارة والسلب والنهب وسيلةً من وسائل العيش ، فكانوا يغيرون على
القبيلة المعادية لهم فيأخذون جمال أهلها ، وهي أعز الأشياء لديهم ، ويسبون نساءهم وأولادهم ،
ويستولون على ما يملكون ، ويسومونهم الخسف والهوان ، وتقر بصهم القبيلة الأخرى
الدوائر حتى إذا سنحت لهم الفرصة اغتتموها ، وفعلوا بهم مثل ما فعلوا أو أشد ، وبادلهم سلباً
بسلب ، وعدواناً بعدوان .

ولقد نبأنا التاريخ أن القبائل الضعيفة كثيراً ما كانت تضطر إلى الاحتماء بالقبائل
القوية لتذود عنها وقت الخطر ، وتقاتل دونها إذا جدَّ الجدُّ ، وانتابها الخيف والعدوان .
ولكن هيهات ! فقل أن يدوم حلفهم ، أو يطول اتحادهم ؛ بل سرعان ما يدب بينهم
ديب النزاع والشقاق ، فينقلب المتحالفون أعداء متحاربين ، وخصوماً متقاتلين .

هذا حالهم ، وتلك بعض صفاتهم ، فكانوا لذلك في أشد الحاجة إلى دين يضمهم تحت
لوائه ، ويجمع كلمتهم ، ويوحد صفوفهم ، ويستل من نفوسهم سخائم الجاهلية ، ويبين لهم
الرشد من الغي ، ويهديهم الصراط السوى .

وشاء العزيز الحكيم ، الذي خلقهم في أحسن تقويم ، ألا يدعهم على هذه الحالة التي تؤذون بالخطر ، فما هي إلا عشية أوصحها ، حتى ظهر نور الإسلام فأضاء المشرقين والمغربين ، وسارع الناس إلى الدخول فيه أفراداً وجماعات ، ونزل القرآن الكريم على الرسول الصادق الأمين ، جامعاً لكل شيء ، آمراً بالخير والنجاح ، ناهياً عن الهلاك والدمار ، مشتتلاً على أسباب السعادة في الدنيا والعقبى ، هادياً إلى الحق والصرراط المستقيم .

جاء الإسلام فمضى على ما كان في الجاهلية من ظلم وجور ، ورفع منار العدالة والقسطاس ، ودعا إليهما التنزيل الحكيم في غير موضع منه ^(١) .

قال تبارك وتعالى : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمُ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) .

وقال جل شأنه : (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .

وبين القرآن الكريم أن الناس كلهم مخلوقون من آدم وحواء ، ولا فضل لأحد على الآخر ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ؛ فقال جل ثناؤه :

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

وجاءت السنة الكريمة شارحة كتاب الله العزيز الحميد ، مبينة للناس ما نزل إليهم ، داعية إلى أشقات الفضائل ، محذرة عن تمكبات جادة الإنصاف والعدل ، وهل وراء ذلك مطلع إلى القسطاس لناظر ، أوزيادة في العدالة لمستزيد ؟

وبينما نرى أهل الجاهلية في شقاق دائم ، ونزاع مستمر ترى أن الدين الإسلامي يأمر بجمع الكلمة ، واتحاد القلوب ، وضم الصفوف ، وتوحيد القوى نحو مقصد شريف ، وغاية سامية ، وهدف نبيل ؛ وينهى عن التفرق ، ويحذر أهلها عاقبته الوخيمة . قال تبارك

(١) وهي المذكورة في باب العدل في كتابنا هذا .

وتعالى : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَإِذْ كَرُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا . وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا . كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

وبينا نرى أهل الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار من أولاد الميت ، نرى الإسلام يفرض الفرائض الشرعية على أساس محكم ، وقاعدة عادلة تصلح لكل زمان ومكان . ولما كان التوهم قد ألقوا ما كان عليه أسلافهم في الجاهلية من توريث الأكبر فالأكبر ممن يقدر على خوض غمار الحروب ، وحرمان النساء والصغار من أبناء الميت ، نرى بعضهم قد شق عليه — بادي ذي بدء — قبول ما جاء به الإسلام من الفرائض مخالفاً لما ورثوه عن آبائهم في هذا الصدد .

ولكنهم لم يلبثوا أن علموا أن التشريع الإسلامي تشريع محكم ، قائم على أساس العدالة والإنصاف ، وفي غاية من الدقة والإحكام ، فتقبلوه بقبول حسن ، وعملوا بمقتضاها طائعين راضين « أشربوا في قلوبهم حب مبادئ الإسلام السامية ، وسارعوا إلى العمل بها عن طواعية ورغبة ، وأيقنوا أنها أتت لخير الخلق أجمعين » .

ولم يقف الإسلام حياء خرافات الأولين وترهاتهم مكثوف اليمين ، بل أتى عليها من الأساس ، وأبادهها من عالم الوجود ؛ فقد كان بعض أهل الجاهلية يعتقد أن للآفات في الآخرة منزلة لا تقل عن منزلتها في الدنيا ، وتطرفوا في اعتقادهم هذا حتى تحول إلى وهم انتشر فيهم بأن الولد قد يرث منزلة والده الدينية وإن لم يكن أهلاً لها وجديراً بها ، كما يرث عنه ما تركه من مال ومتاع .

ولو أمعنت النظر في مبادئ بعض الأديان الأخرى غير ديننا الإلهي العظيم لوجدت هذا الوهم وذلك الاعتقاد قد وجدا لها أنصاراً عديدين ، ومحبذين كثيرين .

ولما أشرفت أنوار الإسلام على الوجود ، محاه هذا الاعتقاد الواهي ، ومقت ذلك الوهم الساقط ، وقرر في النفوس أن الناس مجزيون بأعمالهم صغيرة وكبيرها ، خيرها وشرها ، (يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) .

ولقد بينَ هذا الدين الخفيف في صراحة لا يعتورها لئس ولا خفاء ، أن كل إنسان سيجنى يوم الحساب ما قدمت يدها في هذه الدار الفانية ، وعند الله الحكم العدل لا تحمل نفس آئمة إنم نفس أخرى ، ولو كانت من أقرب الأقربين إليها ، بل كل نفس تنال جزاءها بقدر أعمالها « إن خيراً نخير ، وإن شراً فشر » ، (وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ) .

وقد جاء التصريح بذلك في عدة مواضع من التنزيل الحكيم :
قال تعالى في سورة فاطر ، بعد أن ذكر الناس بغناه عنهم ، وفقرهم إليه ، وأنه قادر على إذهابهم وإماتهم ، والإتيان بخلق جديد يطيعونه حق الطاعة .
(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ . وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) :
(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِوَاهِرِهَا لِأُحْمَلٍ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَا تَزِرُ كِفَّةً عَلَيْهَا لَئِنْ لَمْ يَنْبَأْ بِهَا فِي حُكْفٍ مُؤْتَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَىٰ . أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) .

وقال جل وعلا في سورة النجم: (أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَىٰ . أَنْ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَىٰ . ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ) .

وقد جاء سيد الأولين والآخرين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقوى هذه القاعدة العادلة ، وقررها في النفوس ، ومكثها فيها فضل تمكن ؛ أمر يوماً بجمع أهله وعشيرته الأقربين ، فانفضت إليه المجالس ، وحضرته قريش وأتاه بنو عبد مناف وبنو عبد المطلب وبنو هاشم وعمه العباس وعمته صفية وكريمته السيدة فاطمة ، رضوان الله تعالى عليها ؛ ولما أخذوا مجالسهم ، والتأم عقد الحاضرين ، قام فيهم الرسول الأعظم خطيباً . فقال بعد أن حمد الله حق الحمد ، وأثنى عليه أبلغ الثناء :

« أَيُّهَا النَّاسُ : اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ — أَى عَذَابِهِ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ — فَإِنِّي

لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . يَا بَنِي هَاشِمٍ ! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . يَا صَفِيَّةُ يَا عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ : لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا . يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ! سَلِّينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا .

فإذا كان الرسول الكريم لا يغني شيئاً عن ابنته رضوان الله عليها ، وهي أحب الناس لديه ، فهل يتصور بعد ذلك أن يغني أحد من أمته شيئاً عن صواه من الناس ؟ وإن في ذلك لمنتهى الإنصاف بلا ريب ، وغاية العدالة بلا نزاع .

وهل ترى ديناً غير الدين الإسلامي العظيم جمع السعادة لمعتنقيه ، والهناء لمتبعيه ؟ كلا . فإن الدين الإسلامي بحق هو دين الفطرة ، ويتمشى مع كل زمان ومكان ، ولم يعرف أمراً يوصل الإنسان إلى السعادة في الدنيا والآخرة إلا وأمر به ، ولا شيئاً يدفع بصاحبه في مهادى الهلاك وبؤر الدمار إلا ونهاه عنه ، وحذره منه .
(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

٦ - العلوم والعدالة الاجتماعية

بقلم حضرة صاحب العزة الدكتور عبد العزيز أحمد بك

منذ أن قامت الحرب الحاضرة ، ورأى الناس شدائدنا وأهوالها التي تصيب المدنيين في بيوتهم كما تصيب الحار بين في ميادين القتال على السواء ، أخذوا يفكرون في أسبابها ، وفيما إذا كان من الممكن منعها مستقبلاً .

وقد هدام التفكير إلى أن أسبابها اقتصادية ، يرجع معظمها إلى الضائقة المالية التي أصابت الدول عامة ، وإلى البطالة التي انتشرت فيها ، خصوصاً في دول المحور ، فدفعت الحكومات إلى الاستكثار من معدات التسليح كعلاج لها .

وكان من نتائج هذا التفكير أن انتشرت في العالم نزعة جديدة ترمى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس ، باعتبارها الهدف الأسمى والمثل الأعلى للحياة الإنسانية ، وأن فيها القضاء النهائي على الحروب بين الأمم .

وبفضّ النظر عما إذا كان تحقيق العدالة الاجتماعية بين الناس وحده كافياً للقضاء على الحروب ؛ أم أن هناك شيئاً آخر يسمو فوق الماديات لا بد من توفره بجانبها ، ليس هنا مكان الخوض فيه ؛ فما لاشك فيه أن العدالة الاجتماعية أصبحت الآن ضرورة محتومة بسبب التطور الفكري الذي حدث في العالم .

العدالة الاجتماعية هي تعبير آخر لتحرير الفرد من العوز والحاجة إلى الغذاء والكساء والصحة والتعليم ، باعتبار هذه الأشياء هي المقومات الضرورية للحياة ، وأنها حق طبيعي لكل فرد على قومه وعلى المجتمع .

والواقع أن الدول الراقية كانت سائرة في توفير هذه المطالب لكل فرد قبل الحرب بدرجات متفاوتة بنسبة تقدمها ورقبها ، وقد اتبعت في سبيل تحقيقها طريقتين مختلفتين في الاتجاه وإن اتفقا في الغاية والنتيجة .

ففي بريطانيا العظمى وأمريكا : قامت العدالة الاجتماعية على فرض ضرائب تصاعديّة على ثروات الأفراد والشركات ترتفع في النهاية إلى ما يزيد على ٩٥٪ من الإيراد ، ثم استخدام حصيلة تلك الضرائب لإغاثة الفقراء والمواطنين باقدر الذي يسمح بسد حاجاتهم من مطالب الحياة الضرورية السالفة الذكر ، بعد تقدير حدّها الأدنى لكل فرد ، وبهذا وفقت تلك الدول بين نظام (الرأسمالية) الذي تدين به وتحافظ عليه ، لما ثبت لها من فوائده بمرور السنين والأحقاب ، وبين تحقيق العدالة الاجتماعية التي تنشدّها .

أما في روسيا الشيوعية فقد سلكت حكومتها مسلكاً آخر في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية ، وهو هيمنة الدولة على مرافق البلاد الإنتاجية في الزراعة والصناعة وسائر موارد الثروة فيها ، واستخدام أفراد الشعب كافة في استثمارها ، كل بحسب قدرته ومواهبه ، وتوزيع الإيراد من الإنتاج عليهم بقسطاس معين ، ملحوظ فيه كفاءتهم ومقدرتهم على

الإنتاج الفكرى والجسمانى ، أو بالأحرى بحسب مساهمتهم العملية فى الإنتاج ؛ فجاء هذا التوزيع متفتحا مع العدالة ، مرضيا من الجميع .

هاتان الوسيلتان تشتركان أيضاً فى أمر واحد لا يمكن تحقيق تلك الغاية المنشودة بدونهُ ، وهو أنه لا بد أن تكون الثروة الأهلية من السعة بحيث إذا وزعت بهذه الوسيلة ، أو بتلك أمكن توفير أسباب الحياة الضرورية للأفراد ؛ فبريطانيا تعتمد فى ذلك على ثروتها الطائلة فى داخل بلادها ، وعلى الثروات الواسعة المستثمرة فى إمبراطوريتها انترامية الأطراف وراء البحار ، وفى كثير من البلاد الأخرى ؛ كذلك تعتمد أمريكا على ثروتها الأهلية التى بلغت شأواً بعيد المذال ، وفى روسيا أيضاً قد تقدم الإنتاج الزراعى والصناعى فى الحقبين الأخيرتين بخطوات هائلة ، وأذهلت العقول بما أدخلته فى نظامها الاقتصادى من برنامج الخمس السنوات الذى تكرر مرات عدة فى العشرين سنة الماضية ، حتى أصبحت الآن تضارع فى الإنتاج الصناعى بريطانيا العظمى التى سبقت العالم أجمع فى الأعمال الصناعية بأكثر من نصف قرن .

والخافز الذى يرجع إليه الفضل فى هذا التقدم المادى والاقتصادى ، سواء فى بريطانيا أو أمريكا أو روسيا ، هو « العلوم » التى وضعتها تلك الأمم نصب أعينها ، وأحلتها المكان الأول من اهتمامها ، وكل من يتتبع التقدم العلمى فى روسيا الآن يعجب كيف تمسكت هذه الدولة الناشئة الحديثة العهد بالعلوم وفنون الهندسة من الوصول إلى هذا المستوى العلمى الرفيع فى هذه الفترة القصيرة ؟ فإذا ما أقبل الإنسان على دراسة الوسائل التى اتبعتها روسيا لتنشيط الإنتاج العلمى — وهى مشروحة فى كتبها ومجالاتها — تبين له أنها وسائل عادية ، وفى مقدور كل أمة أن ترسمها فتصل إلى نفس النتيجة .

ليس فى العالم الآن من يجهل فضل العلوم سواء العلوم البحتة ، والعلوم التطبيقية التى نسميها إعادة بالفنون الهندسية — فى ترقية هذا المجتمع بعد أن كشفت الحرب الحاضرة عما تستطيع أن تقوم به العلوم مما يمدد رجل الشارع من المعجزات ، ولا يحط من قدرها أنها وجهت إلى التدمير ، فليس هذا التوجيه من فعل العلماء أنفسهم ، ولا هو من أغراضهم ، بل أن مهمتهم الأولى والأخيرة هى الكشف عن أسرار الطبيعة ، وإعطاؤها الصفة العمالية

التي تجعلها صالحة للاستعمال إن خيراً وإن شراً ؛ فإذا ما وجهت العلوم ونتائجها نحو التعمير بعد انتهاء الحرب — وكل الشواهد تدل على ذلك — واستخدمت في زيادة الإنتاج في النواحي الاقتصادية المختلفة ، فستؤتي ثمارها يازمة ، وسيصبح العالم أسعد بكثير مما كان عليه قبل الحرب .

كل يوم تأتينا الأخبار باستعداد الأمم لتحقيق سلم دائم يقوم على تحسين الأحوال الاقتصادية ، وزيادة الإنتاج في كل بلاد العالم ، وتوفير أسباب السعادة لكل الشعوب ، لأن هذه الأمم أدركت تمام الإدراك أن وجود شعب واحد محروم في دنيا سعيدة ، خليق بأن يثير عواصف القلاق في الشعوب الأخرى .

ولما كانت العلوم هي الدعامة التي يبنى عليها صرح التقدم الاقتصادي ، فقد أخذت كل دولة في تعبئة أكبر عدد ممكن من رجال العلوم والهندسة وتوجيه جهوداتهم إلى استثمار موارد الطبيعة وزيادة الإنتاج بالوسائل العلمية في جميع نواحي النشاط الاقتصادي .

ولقد وهب الله مصر أرضاً من أحصص بقاع العالم ؛ ومع ذلك لا يكاد إنتاجها الزراعي يضارع إنتاج البلاد التي أدخلت الوسائل العلمية في زراعتها .
وفيها كذلك معادن ومناجم تحسدها عليها بلاد أخرى حرمت منها ، مثل (سويسرا وإيطاليا) ولم يمنعها ذلك من تقدم الصناعة فيها .

وفي مصر أيضاً منابع للقوة المحركة والسكر بائية لا يستهان بها ، كل ذلك خليق بأن يجعلها تنبؤاً مكاناً محترماً بين الدول الراقية ، ولا ينقصها إلا أن تعي جهودها لتنشيط العلوم والأبحاث العلمية ، وأن تستكثر من استخدام الوسائل العلمية في شؤونها الاقتصادية .
الدستور في يوم السبت ٢١ أكتوبر سنة ١٩٤٤

٧ - إقامة العدل ومحق الظلم

والحكم في الناس بما يصون حقوقهم

كل ما في هذا السكون المحكم بعوالمه ، يقوم على نظام محكم ، وترتيب عجيب (ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ) .

فيجدر بالإنسان أن تكون كل أحواله وأعماله العامة جارية أيضاً على نظام يدير شئونه ، ويسوس أموره .

ومن أجل ذلك اقتضت إرادة الله سبحانه وتعالى إيجاد السلطان الوازع ، والشرع النافذ في خلقه منذ القدم ، وفي كل الشعوب والأمم (وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) ، ولهذا قيل : « السلطان ظل الله في أرضه » .

بالعدل والنظام قامت السموات والأرض .

ومبدأ القرآن فيما يتعلق بالنظام الاجتماعي ، دائر على محور إقامة العدل ، وحسن تدبير الشئون في سياسة الخلق ، فسياسة المصالح ، وتدبير الأمور على حسب المقتضيات مادةً وأدباً - مطلوب من الراعي لرعيته ، وتقرير النظام ، وبسط رواق الأمن ، وتمهيد سبل استغلال الثروة في المجتمع ، ونصب ميزان القضاء العادل بالشرع والقانون ، والذود عن حياض المملكة ، والدفاع عنها ، وتشجيع العلم والعلماء ، وتسهيل نشر المعارف ، والأمر بالمعروف بين الرعية ، حقوق واجبة على الحكومة في نظر الإسلام ، حث عليها الشارع ، ونزل بها الكتاب ، وجرى بها العرف الصحيح .

فتوطد دعائم الأمن ، وتأسس المنافع ، وتسهيل سبل المرافق من أجل ما حث عليه الشرع الإسلامي ، وأوجبته المبادئ الإسلامية في آداب الحكومة .

وبالعدل تنتظم أحوال الرعية ؛ ولقد نص الله تعالى في أكثر من آية من كتابه العزيز على إقامة قسطاس العدل في الشئون المختلفة ، وفيما يشجر بين الناس من الخصام في الحقوق وسائر المعلومات .

ولذلك وجب في نظام المجتمع الإسلامي وآدابه السامية اختيار القضاة والولاة والنواب وسائر العمال من أهل العلم والتقوى والنزاهة .

ولقد ورد في الحديث الشريف : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْبَصَرَ النَّاقِدَ عِنْدَ وُرُودِ الشُّبُهَاتِ وَيُحِبُّ الْعَقْلَ الْكَامِلَ عِنْدَ حُلُولِ الشَّهَوَاتِ » .

والرشوة وما في حكمها هي : السحت (الحرام) ، والربا المحرم ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وهي إذا أخذت لإحقاق باطل كانت من أشأم الظلم والجور الذي لا يغلت صاحبه

من عقاب الله ، وإذا تنوعت لتيسير مصلحة بحق ، كانت من أعظم أكل أموال الناس بالباطل .

ومن الكذب على الله ، والافتراء على الناس ، ما يقدمه المحكوم للحاكم باسم الهدية ، وهي الرشوة بعينها .

جاء في صحيح البخارى ومسلم عن أبى حميد الساعدى قال : « اسْتَعْمَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا مِنَ الْأَزْدِ سَمِعُهُ (ابن التيبية) عَلَى الصَّدَقَةِ فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ : هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ إِلَيَّ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا بَالَ الرَّجُلِ نَسْتَعْمِلُهُ عَلَى عَمَلٍ مِمَّا وَلَا نَأْتِيهِ اللَّهُ فَيَقُولُ : هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ إِلَيَّ ؟ فَهَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ أَوْ بَيْتِ أُمِّهِ فَيَنْظُرُ أَبِيهِ إِلَى إِلَيْهِ أَمْ لَا ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَا يَأْخُذُ مِنِّي شَيْئًا إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا لَهُ رُغْلًا ، أَوْ بَقْرَةً لَهَا حَوَارٌ ، أَوْ شَاةً تَمْعُرُ (نصيح) ثم رفع يديه حتى رأينا عقر إبطه (أصل إبطه) وقال : اللَّهُمَّ هَلْ بَلَغْتُ ؟ »
فتمادى عمال السوء فى أخذ الرشوة ، وخيانة الدولة من أعظم ما يفسد المصالح القضائية والإدارية فى المملكة .

فاختيار العمال واجب ، وتقييدهم بالنظام لازم ، وانتقاؤهم من ذوى الاستقامة ، المشهورين بالصدق والإخلاص والعفة والحزم ضربة لازب .

ومن أصول دعائم قيام المملكة : تنظيم الجند للحراسة ، والدود عن حياض الدولة والأمة داخلاً وخارجاً ، وهذا أمر مرغوب فيه وداخل فى حكم الآية الشريفة : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) .

فيجدر بالأمم الإسلامية أخذ الحذر ، والسهر والمداومة على انتقاء أحسن التدابير العسكرية الفنية والعملية مما له أصل فى الترغيب فى القرآن الكريم .

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بُنْيَانًا مَرَّضُونَ) .

وكل ذلك يقتضى إغداق الأرزاق على الجنود ، واختيار أجود العُدَد والسلاح

واللباس ، والمران على أساليب الحرب . قال الإمام الطرطوشي في كتابه « سراج الملوك »
في فضل الجندية ، والحث على القيام بشأنها :

الجند عُدَّةُ الْمَلِكِ وَحِصُونُهُ ، وَمَعَاقِلُهُ وَأَوْلَادُهُ ، وَهُمْ حِمَاةُ الْبَسِيطَةِ ، وَالذَّابُونَ عَنِ الْحَرَمَةِ ،
وَالدَّافِعُونَ عَنِ الْعُورَةِ ، وَهُمْ جُنُودُ « حِمَاةِ » الثَّقُورِ ، وَحِرَاسُ الْأَبْوَابِ ، وَالْعِدَّةُ لِلْحَوَادِثِ .
(المرحوم محمد جاد المولى بك)

٨ - بالعدل استقام الملك والدين

العدل وضع الشيء في محله ، وإيصاله إلى مستحقه ، وبه قوام الدنيا والدين ، وسبب
صلاح الخلق ، وبه تألفت القلوب ، والتأمت الشعوب ، وظهر الصلاح ، واتصلت
أسباب النجاح ، وشمل الناس التناصف ، وضمهم التواصل والتعاطف ، وبه عمرت البلاد ،
واستراحت العباد ، وأمنت السبل ، ونمت التجارات ، وورثت الأرزاق ، وعمت الإصلاحات
العامة والخاصة .

وما قامت به أمة من الأمم ، وجعلته في موارد أفعالها ومصادرها ، إلا وكانت في مقدمة
الأمم عمراناً ، وأكثرها حضارة ومدنية ؛ وما حادت عنه ونكبت جانباً منه ، إلا وكان
الخراب رائدها ، والضعف قائدها .

بذلك قضى العقل ، وحكم الله وجرى العمل في الأمم من أول نشأتها إلى الآن ؛
وحسبك عبرة ومصداقاً قولُ الله جل شأنه (فَتِلْكَ بَيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا) .

وهو نوعان : ظاهر وباطن .

فأما الظاهر ، فيكون في الحكم بين الناس لقول الله سبحانه :

(وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ) أى بالعدل .

وفي صدق القول لقوله تبارك اسمه : (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) .

وفي الوزن لقوله عز وجل : (وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ) ويكون في غير ذلك .

وأما الباطن فهو في جميع ما يلزم الإنسان من محاسبة نفسه ، سواء فيما بينه وبين الخالق

أوفياً بينه وبين الخلق .

فأما الذى بينه وبين الخالق ، فامتثال أحكامه ، والتزام حدوده ، والوقوف عند أوامره ونواهيه وإن شئت ، والرضا بقضائه ، والتسليم لقدره ، وإن لم يوافق اختياره .
وأما الذى بينه وبين المخلوقين ، فالإنصاف من نفسه فيما له وعليه ، وأخذ الحق وإعطاؤه ، وقول الصدق ، وحسن المعاشرة ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وكتان السر ، وغير ذلك مما يتعلق بحكم الشريعة ، ويقتضيه الحق ، وتوجيه مكارم الأخلاق ؛ وهو بهذا المعنى لا يختص بحاكم أو أمير أو والٍ أو نحوه . ممن له على غيره حكم دون غيره ، بل هو لازم لكل إنسان فى جميع أحواله ، فإنه يتعين عليه العدل فى أهله وماله وولده وأعوانه وخواله وخلاته وقرابته وجيرانه ومعامله وخلطائه فى أخذه وعطائه ، وفى الخاص والعام من جميع أموره وأحواله .

وقد حث الله عليه ، وبالغ فى التمسك والأخذ به فى جميع الأحوال ، وسائر الأعمال .

فقال جل شأنه فى الحث على العدل فى الحكم بين الناس :

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

وقال تبارك اسمه فى الحث على العدل فى الشهادات :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ، شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ، إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَرْضَوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) .

وقال جل شأنه فى وجوب العدل بين الخصمين ولو كان من أشد الناس عداوة له ، وأبغضهم إليه .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى في الحث عليه والتمسك بعروته الوثقى التي لا انفصام لها .
(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ . وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) .
(عن كتاب الصراط المستقيم للمرحوم أحمد زنائي بك)

٩ - أمثلة في العدل

تقلاً عن كتاب « السمر الواعظ » الجزء الأول

١ - روى عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : دعاني عمر بن عبد العزيز ، فقال
صف لي العدل .

فقلت : بئح بئح ، سألت عن أمر جسيم : كن لصغير الناس أباً ، ولكبيرهم ابناً ،
والمثل منهم أخاً ، فبراً أباك ، وارحماً ابنك ، واحفظ أخاك ، فهذا هو العدل الذي فيه
سعادة الدنيا والآخرة .

٢ - وخطب سعيد بن شريك بجمي ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
أيها الناس : إن الإسلام حائط منيع ، وباب وثيق ، فحائط الإسلام الحق ،
وبابه العدل .

ولا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلاً بالسيف ، ولا ضرباً
بالسوط ، ولكن قضاء بالحق ، وأخذ بالعدل .

٣ - وقال قدامة : حسبكم دلالة على فضيلة العدل ، أن الجور الذي هو ضده
لا يقوم إلا به .

وذلك ، أن اللصوص إذا أخذوا الأموال واقتسموها بينهم ، احتاجوا إلى استعمال
العدل في اقتسامهم ، وإلا ضرت ذلك بهم .

٤ - روى أن مناقباً من المنافقين في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بينه وبين
يهودي خصومة في أمر من الأمور ، وابتغيا حكماً يحكم بينهما .

فقال اليهودى : نحتكم إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال المنافق : بل نحتكم إلى كعب بن الأشرف (وكان كافراً) ؛ وأخيراً قررا أن يحتكما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحكم بينهما ، ورأى أن الحق لليهودى ف قضى له به ، فلم يرض المنافق بعد انصرافهما بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقابلهما سيدنا عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ؛ فقال له اليهودى : قد احتكمنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ف قضى لى بحقى ، ولم يرض هذا بقضائه وخاصمنى إليك .
فقال عمر رضى الله عنه للمنافق : أ كان ذلك ؟ قال : نعم . قال : مكانكما حتى أرجع إليكما .

ثم دخل عمر فأخذ سيفه وخرج ف ضرب به عنق المنافق حتى برد .

وقال : هكذا أ قضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله .

فنزل عند ذلك قوله تعالى فى سورة النساء :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا كَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ^(١) . وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ . وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا . فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ . ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَغْلُمُ اللَّهُ مَأْفَى قُلُوبِهِمْ فَأَغْرَضَ عَنْهُمْ وَعِظُهُمْ . وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا . وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ . وَأَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا . فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ . ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

(١) المراد بالطاغوت : كعب بن الأشرف أو من يحكم بالباطل اتباعا للهوى والشيطان .

وقال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : إن عمر قد فوّق بين الحق والباطل ،
فسمى الفاروق .

٥ - ويروى أن رجلاً من بني ظفر (اعله كان قد أسلم حديثاً) يسمى (طعمة
ابن أبيرق) كان قد سرق درعاً من جاره قتادة بن النعمان ، وكانت في جراب دقيق ،
فجعل الدقيق يتساقط من خرق فيه في الطريق حتى وصل إلى منزل (زيد بن السمين
اليهودى) نخبأها عنده ، والتمس صاحب الدرع درعه عند طعمة فلم يجدها عنده ، وحلف
طعمة إنه ما أخذها وماله بها علم .

فتركوه وانبعوا أثر الدقيق حتى انتهى إلى منزل اليهودى فوجدوها عنده .

فقال لهم : دفعها إلى طعمة ، وشهد بذلك ناس من اليهود .

فقال بنو ظفر : انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلقوا وسألوه أن
يجادل عن صاحبهم طعمة لئلا يفتضح ويبرأ اليهودى ، فزل قول الله تعالى في سورة
النساء أيضاً :

(إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ
لِالْخَائِنِينَ خَصِيماً . (أى مدافعاً) وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً . وَلَا تُجَادِلْ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً . يَسْتَخْفُونَ مِنَ
النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مِمَّا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً . هَا أَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً . وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ
اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً . وَمَنْ يَكْسِبِ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً
حَكِيماً . وَمَنْ يَكْسِبِ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا
مُبِينًا . وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ ، وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا
أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ . وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً) .

والذي يتلو الآيات التي نزلت في كل من القصتين يتمن يعرف مقدار الحكم العادل ،
وعدم المحاباة في الإسلام ، وكفى به عدلا ، وكفى بالله شهيدا .

٦ - وروى أن يهودياً شكاً علياً إلى عمر في خلافته (رضى الله عنهما) فقال عمر
ابن الخطاب لعلى بن أبي طالب : قف بجوار خصمك (يا أبا الحسن) فوقف ، وقد علا
وجهه الغضب .

فبعد أن قضى الخليفة بينهما بالعدل قال : أغضبت يا على أن قلت لك : قف بجوار خصمك ؟
قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكن من كونك كنيته بأبي الحسن ، فخشيت من
تعظيمك إياي أمام اليهودي أن يقول : ضاع العدل بين المسلمين .

٧ - ووفد (جيلة بن الأيهم) أحد ملوك غسان^(١) على عمر بن الخطاب رضي الله عنه
بأبهة الملك بعد أن أسلم فتلقاه بالترحيب .
ولما انصرف إلى مكة حاجاً أخذ يطوف بالبيت ، فداس أعرابي على إزاره ، فلامه
(جيلة) على وجهه .

فشكا الرجل إلى عمر ، فغضب وتألم ، ثم أنصفه من ضاربه ، فكأبر على (جيلة) حكم
عمر ، وقال :

ألا تفرقون في الإسلام بين الملوك والسوقة ؟ فقال له عمر : إن الإسلام قدسوى بينكما .
فغضب (جيلة) وولى هارباً من دين يسوى بين الضعيف والقوى ، ويحكم بأن يؤخذ
للحقير من الأمير ، ثم ندم بعد ذلك ، وقال أبياتاً منها :

تنصرت الأشراف من أجل لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفى منها لجاج ونخوة فبعت بها العين الصحيحة بالمور
فياليت أمي لم تلدني وليتني رجعت إلى الأمر الذي قاله عمر

٨ - وروى أن عمر رضي الله عنه كان يقسم أثواباً بين نساء المدينة ، فبقي منها ثوب
جديد ؛ فقال له بعض الحاضرين عنده : أعط هذا الثوب لزوجتك أم كلثوم .

(١) بنو غسان : هم العرب الذين كانوا يسكنون فيما بين حدود الشام وكانوا تابعين لدولة الروم ،
وجيلة هذا كان آخر ملوكهم .

فقال لهم : إن فلانة أحق به منها ، لأنها بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت تصلح قرب الماء يوم أحد .

٩ - وروى أنه قد جرى لعمر رضي الله عنه بمال فجاءته بنته حفصة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت له :

يا أمير المؤمنين أوصيك بأقربائك بأن تعطيتهم من هذا المال ، فإن الله تعالى قد أوصى بالأقربين .

فقال لها : يا بنية حق أقربائي في مالي ؛ أما هذا فمال المسلمين .

غششت أباك ، ونصحت أقرباءك ، قومي ، فقامت تجرّ ذيلها (خجلًا) .

١٠ - وروى أن ولدي عمر رضي الله عنه ، وهما عبدالله ، وعبيد الله - وكانا في سفر -

فمرّا في طريقهما على أبي موسى الأشعري ، وهو أمير (البصرة) يومئذ فزلا عنده فأكرمهما ، ورحب بهما ؛ وقال لهما : إني أحب أن أعمل لكما عملاً تنتفعان منه ، وهو : أن عندي مالاً من مال بيت المسلمين أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين نخذاه سلفاً واشترى به تجارةً من العراق لتبيعها بالمدينة وتأخذها ربحها ، وتدفعها لأمر المؤمنين رأس المال ، ففعلنا ذلك وربحنا .

فلما بلغ عمر ذلك قال لهما : هل أسلف أبو موسى كل الركب أو أسلفكما وحدكما ؟

قالا : بل أسلفنا وحدنا ، قال : إنه قد فعل معكما ذلك لأنكما ابنا أمير المؤمنين

فخابا كما ، وطلب منهما رضي الله عنه أن يدفعوا رأس المال والربح إلى بيت مال المسلمين .

وبعد مناقشة طويلة بينه وبين ولده عبيد الله صالحهما على أن يأخذ رأس المال

ونصف الربح لبيت المال ، ويترك لهما نصف الربح .

ملحوظة - الذي ذكرناه من حرص عمر رضي الله عنه على العدل ، ونكرانه نفسه

وأهله في سبيل العدل ، قليل من كثير من أعماله وأقواله ، فله عند الله أحسن الجزاء ،

وأكرم المنازل .

نكتفي بما ذكر في أمثلة العدل ؛ ومن أراد الزيادة فليقرأ هذا الفصل في كتاب

« السميع الواعظ » وفي كتابنا : « السميع المهذب » الجزء الثاني من ص ١٠٥ - ١٤٩ ،

والرابع من ص ١٩٤ - ٢٠١

١٠ - مثل من حب عمر بن عبد العزيز للعدل

مما يؤثر عن حب عمر بن عبد العزيز للعدل القصة الآتية :
قدم عليه رجل من حلوان ادعى أن والده عبد العزيز لما كان والياً على مصر ،
أقطعه (عبد الملك بن مروان) أرض حلوان ، فورثها عمر وإخوته ، فقال عمر له : إن لي فيها
شركاء ، إخوة وأخوات لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض ، وقام عمر معه إلى القاضى
وقعد بين يديه ، فتكلم بحجته ، وتكلم الرجل المدعى بحجته ، فرأى القاضى أن الحق مع
المدعى ، فمضى له به ضد عمر . فقال عمر : إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف درهم ، قال
القاضى : قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك ؛ فثلجت نفس عمر بحكم القاضى وقال : وهل
القضاء إلا هذا ؟ تالله : لو قضيت لي ماوليت لي عملاً ، وخرج إلى الرجل من حقه .
فانظر إلى هذا العدل السامى الذى يبدو من خليفة ، هو السيد المطاع ، هو الأمر
الناهى ، فيضرب به للرعية أحسن الأمثال .

رده للمظالم

ولما أقبل عمر على رد المظالم ، وقطع (عن بنى أمية) جوائزهم وأرزاق حراسهم ، ورد
ضياعهم إلى الخراج ، وأبطل فظائهم ، ضجوا من ذلك على رؤوس الملائم فى المسجد ، وكانت
اتهمت لهم هذه الإطلاعات من الخلفاء السابقين ، فلم يرفى هذا ما يؤثر عليه مادام هو فى الحق
يسير ، وخوف الله يخشى ويتقى .

ولقد كانت غلة عمر لما بويغ بالخلافة خمسين ألف دينار وأربعين ، وما زال يردها
لأهلها ومن أخذت منه حتى كانت يوم وفاته مائتى دينار ، ولو بقى لردها كلها .

فأنقر نفسه ، ولم يصب عمر من مال المسلمين شيئاً حتى مات فقيراً ، وكان من رأيه أن
يرجع ما أخذه من الناس ، ولو من طريق مشروع ، لأن استثمار الأموال من شأن الرعايا
لا الرعاة ، فكان نظره أعلى ، وطريقته أمثل وأعدل . أبو السمود أحمد إبراهيم

(عن مجلة نشر الفضائل)

ومن الأدلة على نزاهته أنه كتب إليه عامله على العراق : أن أناساً قبله قد اقتطموا من مال الله مالاً عظيماً ليس يقدر على استخراجه من أيديهم إلا أن يمسه من العذاب . فكتب إليه عمر يقول : أما بعد — فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ، كأنى لك جنة (وقاية) من عذاب الله ، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله ؛ فانظر فيما قامت عليه البينة فخذ بما قامت عليه ، ومن أقر لك بشئ فخذ بما أقر به ، ومن أنكرا فاستحللناه بالله وخل سبيله ، فوالله لأن يلتقوا الله بخياناتهم ، أحب إلى من أن ألقى الله بدمائهم .

هكذا عمر بن عبد العزيز بكل أمر الفصل في الجنة إلى من تولى شئونهم ، ويحثه على أن يقيم فيهم حدود الله متى ثبتت ، ولا يحمل نفسه شيئاً من وزر المسئولية ، ولنعتمد هذه النزاهة وذلك السبيل القويم .
أبو السعود

(مجلة نشر الفضائل)

العدد ٣٠ السنة الخامسة ٨ يناير سنة ١٩٣٨

أمثلة أخرى في العدل

١ - الحاكم العادل نصير الحق

تنازع إبراهيم بن المهدي وبُحَيْشُوع الطيب في مجلس الحكم في عمار ، فأغاظ له إبراهيم القول ، وكان القاضي (أحمد بن أبي داود) فغضب وقال له :
يا إبراهيم إذا نازعت في مجلس الحكم امرأة ، فلا ترفع عليه صوتاً ، ولا تشر بيديك ، وليكن قصدك أئماً ، وطريقك نهجاً ، وريحك وكلامك معتدلاً ، ووف مجلس الخليفة حقها من التوقير والتعظيم والاستكانة ، والتوجه إلى الحق ، فإن هذا أشكل بك ، وأجمل بمذهبك في محتدك ، وعظيم خطرك ، ولا تمجلن فرب عجلة تهب ريثاً ؛ والله يعصمك من الزلل ، وخطل القول والعمل ، ويتم نعمته عليك كما آتمها على أبويك من قبل ، إن ربك حكيم عليم .

فقال إبراهيم : أمرت (أصلحك الله) بسداد ، وحضضت على رشاد ، ولست عائداً لما يثلم قدرى عندك ، ويسقطنى من عينيك ، ويخرجنى عن مقدار الواجب إلى الاعتذار فما أناذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقرر بذنبه ، باخع بجرمه ، لأن الغضب لا يزال يستغزنى بمواده ، فيردنى مثلك بحلمه ، وتلك عادة عندك وعندنا فيك ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ وقد جعلت من هذا العقار لبخيتشوع ، فليت ذلك يكون وافياً بأرش الجناية عليه ، ولم يتلف مال أفاد موعظة .

وبالله سبحانه وتعالى التوفيق . (ثمار الإنشاء)

٢ - العدل والنزاهة

ولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه (قيس بن سلمة) حرب الأكراد فظفر بهم ، ولما فرق الغنائم رأى حلية ، فاسترضى الجند فى إرسالها إلى عمر فرضوا ، فبعث بها مع رجل من أصحابه فقدم الرجل على عمر فرآه يُغدى فقراء المسلمين وهو متكئ على عصاه ، فتقدم إليه فأجلسه .

ولما انتهى الأكل سار عمر إلى داره واتبعه الرجل ودخل معه ، فأجلسه على وسادة وجلس هو على أخرى وقال : يا أم كلثوم غداءنا فأخرجت إليه خبزة بزيت ومهها ملح ، ثم أكل هو والرجل فما كان أحسن أكلامه ، ثم قال الرجل : حاجتى يا أمير المؤمنين أنا رسول قيس بن سلمة . فقال : مرحباً ، وسأله عن المهاجرين . فقال : هم على ما تحب فى كل شئ ، ثم أخبره بأمر الحلية ، فوثب عمر ووضع يده فى خاصرته وقال : لا أشبع الله إذا بطن عمر ، ردّ ماجئت به ؛ أما والله انن تفرق المسلمون فى شائيتهم قبل أن نقسم هذه فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة ، نخرج الرجل حتى أدرك قيساً وأخبره بما كان ففرق الحلية على أهلها .

فانظر إلى عدل عمر وزهده ونزاهته ، فكيف لاتكون القلوب بيده يصرفها كيف شاء ، وأنى أحب .

٣ - مثال حي من عدل الملك ابن السعود

ملك الحجاز وسلطان العرب

ليتظر كل من له عقل ثاقب ، وبصيرة نيرة ، إلى ماصار إليه الحجاز من وقت أن تولى عليه الملك ابن السعود ، الملك العادل ، وكيف تبدلت الأحوال ، وانتشر الأمن والأمان ، في هذا الزمان ، فسبحان مدبر الأكوان ، الواحد المتان ، الذي لم يترك الإنسان في عالم الطغيان ، بل اصطفى له ملكاً كريماً يعطه الطريق القويم في بث التعاليم ، وإرسال الكتب القيمة والمرشدين ، لهداية الناس وتعليمهم طرق الحق والهداية ، وإرجاعهم عن غيهم وخطائهم إلى الصراط المستقيم .

أذهب الآن إلى بيت الله الحرام ، وزمزم والمقام ، وانظر كيف تبدلت العوائد التي من البدع والعيوَاب والضللال إلى ما يتفق مع أصول الدين الحنيف من الصدق والحق والأمانة فجزاه الله خير الجزاء ، (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) .

ومن جملة عدله الذي عم الأقطار الحجازية أنه يوجد رجل من التجار المشهورين يسمى (صادق أفندي خوجه زاده) وهو ابن المرحوم (محمود بك خوجه زاده) رئيس بلدية دمشق الشام ، اشتغل بالتجارة في الأقطار الحجازية مدة خمسين عاماً ونيفاً ، فحدث منذ بضعة شهور أن توقف أحد التجار السوريين المقيمين بالحجاز عن دفع ما عليه من الديون المستحقة لصادق أفندي زاده ، وأنكر كل ما كان عليه له من دراهم وبضائع تعادل نحو ستين ألف جنيه ؛ ونظراً لما كان المرحوم محمود بك زاده من المحبة والمكانة العظيمة في قلوب أهل الحجاز ، أوعز بعضهم إلى ابنه صادق أفندي أن يرفع أمره لجلالة الملك ابن السعود ، فتوجه إلى جلالتهم وقص عليه أمره ، وهو يصفى إليه في اهتمام وعطف ؛ ولما تحقق من صدق روايته أصدر أمره في الحال بدعوة جمعية من التجار ، وبينهم ذلك التاجر الناكر الجميل ، وبعد أن ناقشه جلالتهم في أمر ما عليه من الديون ، استطاع بحكمته ودهائه أن يستدرجه إلى أن أقر واعترف بما في ذمته ، ورد إلى صاحب الحق خمسة وعشرين ألف جنيه من الذهب ، واستطاع رجاله أن يخرجوا ما كان مخبئاً من البضائع في المخازن وغيرها ،

فكان هذا العمل الجليل موضع دهشة جميع التجار ، وتقديرهم لحمية جلالة الملك ، وحرصه على حب العدل والإنصاف ، وتمرر اعتقادهم بأنه لا يمضي وقت طويل حتى يعود الحجاز إلى عهده في صدر الإسلام .

فَسأَل اللهُ أنْ يديمَ جلالته مناراً للعدل والحق والتوحيد .

(السيد حسن الأنين)

مصر القديمة

٤ - مثال آخر من عدل الملك ابن السعود

قال لنا أحد رجال السلك السياسي : إن جلالته يعامل أولاده بحزم ؛ وحدث أن كان أحد الأمراء من أنجال الملك يقود سيارته ، فقدم أعرابياً في الطريق العام ، وحوار مدير الأمن العام في الأمر ، واتصل بجلالة الملك ابن السعود ، يسأله كيف يتصرف في الحادثة؟ .

فقال جلالته : كيف يعامل السائق العادي إذا قتل أحد المسارة ؟

فأجاب مدير الأمن العام : نقبض عليه ولا نفرج عنه حتى يدفع فدية الأعرابي .

فقال جلالته : إذا قبضوا على ابني ولا تفرجوا عنه حتى يدفع فدية الأعرابي .

وقبض على نجل الملك ، ولم يفرج عنه إلا بعد أن دفع الفدية من جيبه .

وهكذا يكون عدل الملوك . (أخبار اليوم)

١ سبتمبر سنة ١٩٤٥ العدد ٤٣

٥ - تكذيب ما نسب إلى قراقوش

من جور الأحكام

كنت أظن عند ما أسمع الناس يقولون : (هذا حكم قراقوش) ، أي أن قراقوش هذا رجل ظالم جبار ، سيء الإدارة والحكم ، حتى صار يضرب به المثل في الظلم وجور الأحكام .

ولكن عند ما قرأت تاريخه في دائرة معارف القرن العشرين ، للأستاذ الجليل

« محمد فريد وجدى بك » ، علمت أنه كان رجلاً صاحب همة عالية ، وإدارة حكيمة ،

وأنه ليس بالرجل المستبد الظالم كما يقولون .

وإليك خلاصة ما ذكر عنه في دائرة المعارف المذكورة :

(قراقوش) هو الوزير أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب ببهاء الدين .
كان أصله مملوكاً للسلطان صلاح الدين ، وقيل : بل مملوكاً لأسد الدين شيركوه ،
عم السلطان صلاح الدين فأعتقه ، وكان معتمداً عليه في تدبير أحوال المملكة ، وكان رجلاً
مسهوداً وصاحب همة عالية .

وقال القاضي ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان» : والناس ينسبون إليه أحكاماً
عجيبة في ولايته حتى إن «الأسعد بن ممتي» ذكر له جزءاً لطيفاً سماه : «الماشوش
في أحكام قراقوش» ، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه ؛ والظاهر أنها موضوعة ، فإن
صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه .
نقول ولم يزل الناس عندنا يضربون به المثل في سوء الإدارة ، وجور الأحكام ؛
فيقول أحدهم إذا أنس جوراً في حكم (هذا حكم قراقوش) ؛ ولا شك أن هذا الوهم سرى
إلى الناس من كتاب الأسعد بن ممتي الذي ذكره القاضي ابن خلكان ، وليس للعامة من
حظ في نقد أعمال الرجال ، فكثيراً ما يتعلق بأذهانهم الوهم الباطل ، فيتوارثونه جيلاً بعد
جيل على نحو ما حصل لقراقوش هذا .

واقعد صدق المثل : (كم في الحبس من مظلوم برىء) ؟

(دائرة معارف القرن العشرين)

٦ - قدس العدل

في أيام حكم «فريدريك الأكبر» ملك «بروسيا» كان على مقربة من قصر
«سان سوسى» الذى يقيم فيه الملك (طاحون) تحجب مناظر الطبيعة عن بعض نوافذ القصر .
ولما رأى الملك أن هذه الطاحون تحول دون أن يستكمل القصر بهاءه ورونقه ، سأل
صاحبها عما يطلبه ثمنها ؟ فأجابه الطحان البروسى : إنه لا ينزل عنها بأى ثمن .
فكان هذا الجواب الجاف الغليظ باعثاً لأن يأمر الملك بهدمها على الفور .
وعند ما بدى بتنفيذ ذلك قال الطحان : يستطيع الملك أن يفعل هذا ، غير أنه
في «بروسيا» قانون سيعلم نبأه بعد حين .

ولما رفع أمره للقضاء حكم على الملك بأن يعيد على نفقته بناء الطاحون كما كانت ويدفع لصاحبها إلى جانب ذلك مبلغاً كبيراً من المال على سبيل التعويض .
فكان هذا الحكم ، وإن جرح عزة الملك وكرامته ، مدعاة لمفاخرته بأن يرى في روسيا قانوناً عادلاً يسهر على تنفيذه قضاة أشداء في الحق يقيمونه حتى على الملك نفسه ، وبعد سنوات عديدة آل ملك الطاحون إلى أحد ورثة ذلك الطحان .

ولما وجد نفسه في ضائقة مالية لا يمكنه احتمالها ، كتب إلى ملك بروسيا في ذلك الحين ، يذكره بما كان من أمر جده الطحان السابق مع « فريدريك الأكبر » ، ويعرض عليه لما هو فيه من ضنك وضيق ، وشدة نزوله عن الطاحون إذا رغب جلالته في ذلك مقابل مبلغ من المال ، ولكن الملك أرسل إليه في الحال ردّاً بخط يده يقول له فيه :
جاري العزيز : لا يمكنني أن أسمح لك ببيع هذه الطاحون التي يجب أن تبقى في حوز أسرتك إلى ماشاء الله ؛ لأن مبادئها أضحت ملكاً لتاريخ بروسيا ، ويجب أن تظل قائمة تذكراً لعدالة قضائنا وعدم تحيزهم في تنفيذ القانون ، وإنه ليسوءني أن أسمع عنك أنك في ضائقة مالية ؛ ولهذا أبعث إليك بستة آلاف ريال لتؤدي منها ديونك ، راجياً أن تعنى بكل حاجاتك ، وأرجو أن تعتبرني جارك المحب . « فريدريك ولیم »
ولا تزال هذه الطاحون قائمة إلى اليوم رمزاً لعظمة القضاء وشرف القضاة .

(عن كتاب التربية بالقصص)

٩ - العدالة المطلقة (الاجتماعية)

كان لبدآل (بقال) من (أزميز) ولد ، وصل بعلمه واجتهاده إلى مركز قاض في المدينة وكان عمله الرئيسي ينحصر في تفقد حال الأسواق المختلفة في الموازين والمكاييل التي يستعملها البائعون ؛ فاتفق له أن مرةً بمتاجر الحي الذي يبيع فيه والده .

ولما علم التجار أن التفتيش يجري في هذا اليوم ، وكانوا يعرفون أن والد المفتش يعامل الناس بموازين ومكاييل غير رسمية ، وجهوا نظره إلى الاحتياط في إخفائها وإظهار الموازين والمكاييل (المدموغة) الرسمية ، ولكنه تلقى نصيحتهم بالازدراء ، وهزّ الكتف ، وعدم الاكتراث ، ووقف أمام متجره باطمئنان وهدوء ، منتظراً وصول ابنه إلى محله .

جاء المفتش، ولديه من الدواعي الكثيرة ما يحتم عليه أن يبحث أساليب والده في الفسح ويكشف عنها للناس، ليكون ذلك لهم عظة وعبرة .

ولما وقف بيباب متجر والده، وطلب إليه إحضار موازينه ومكاييله، ليفحصها ويمتحنها لم يحفل البقال بهذا الطلب، وجعل يتبسم ضاحكاً، ولكنه اعتدل على صوت الأمر الجدى الذى ألقاه ابنه للضباط المرافقين له، إذ دخلوا وقتشوا حتى أظهروا الموازين والمكاييل التى اتضح بعد الفحص الدقيق أنها مفشوشة، فأمر فى الحال المفتش بكسرها؛ وقف البقال مبهوتاً، وظن أن الأمر انتهى عند هذا الحد، وأن ابنه لن يتأدى فى تطبيق القانون وتوقيع الجزاءات الأخرى التى من شأنها أن تفضحه فضيحة علنية، وأشهره به على أنه كان خاطئاً فى ظنه، لأن ابنه أمر بالعقوبات كما لو كان المجرم رجلاً غريباً عنه؛ فحكم عليه بتغريمه خمسين غرشاً، وبجلده عدداً معيناً من الجلادات، وقد أنفذ الحكم فى الحال، بعد ذلك نزل المفتش عن صهوة جواده، وترامى على قدمي والده وقال له :

ياوالدى العزيز: لقد أدبت واجبي لله وللملكى ولبلادى ومركزى، فاسمح لى الآن أن أتكلم معك فى احترام الابن، وخضوعه المفروض عليه لأبيه .

فالمدالة عمياء لانفرق فى التطبيق بين قريب وغريب، وفرض الله، وحقوق المواطنين تجلّ عن أن تتأثر بالروابط الطبيعية، وأنت خرجت على القوانين فكنت مستحقاً لأن ينالك عقابها، ولولم تلتق هذا الجزاء على يد ابنك لوجب أن تقع تحت طائلته على يد أى إنسان آخر؛ وإنى آسف أن يكون مقدوراً لك ألا تتلقى النصيحة إلا منى، على أن ضميرى لم يرض أن أفعل إلا ما فعلت؛ فاسلك فى المستقبل طريقاً أشرف، وبدلاً من أن تمهد على أرجو أن تعذرى، وتقدر أحوالى ومركزى .

وبعد ذلك تسلم صهوة جواده، وسار فى طريقه فى وسط هتاف الهاتفين، وإعجاب المعجبين من جميع الأهالى بمدالته المطلقة .

ولم يكن هذا التشجيع والاحترام هو كل ما كوفى به على عدالته، بل ظهر فى صورة أخرى إذ رقاها السلطان بعد الوقوف على حالته وعدالته، ومعرفة تفاصيل الحادثة إلى وظيفة قاض، ثم ترقى منها إلى وظيفة مفتى، وبقى فيها حارساً للقوانين، ومحافظاً على تطبيقها فى جميع أنحاء المملكة .
(التربية بالقصص)